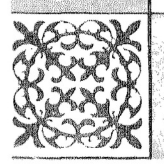
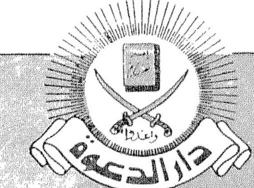
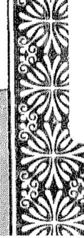
أبو الأعلى المودودي

نظام الحياة في الإسلام







اهداءات ٢٠٠٢

ا/مصطفى جمعه

اسكندرية

نظام الحياة فى الاسلام

نظام الحياة في الإسلام

أبو الأعلى المودودي

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك ا الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

النظام الخلــقى

الشعور الخلقى فى الانسان • شعور فطرى ، فطره عليه الخالق تعالى ، فيحمله على حب بعض صفات الانسان وكراهة أخرى • وهو ، وان كان متفــاوتا وعلى أقــدار متنوعة فى مختلف أفراد البشر • الا أن الشعور العام • بقطع النظر عن الافــراد • لا يزال يحــكم على بعــض السجايا الخلقية بالحسن وعلى بعضها بالقبح فى كل زمان• فالصدق والامانة والعدالة والوفاء بالعهد مثلا • كل ذلك مما عدته الانسانية من الصفات الخلقية الجديرة بالثناء والمدح فى كل دور من الادوار • ولم يأت على الانسانية حين من الدهر استحسنت فيه الكذب والظلم والغــدر والخيانة • وهكذا أمر المواساة والتراحم والسخاء وسعة الصدر والتسامح • فان كل ذلك مما لم تنظر اليه الانسانية الا بنظر التقدير والاجلال فى كل زمن من الازمان بخلاف الاثرة وقساوة القلب والبخل وضيق النظر ، فان الانسانية ما عدتها قط فى شيء مما يستحق التوقير والاكرام • ثم

ان الانسانية ما زالت تكرم الصبر والاناة والثبات والحلم وعلو الهمة والبسالة وتنظر اليها بعين الاجلال ، كما لم تزل تحتقر وتزدرى الجزع وقلة الاناة والتلون وخـور العزيمة والجبن . وكذلك لم تبرح الانسانية تعد ضبط النفس والانفة وحسن الخلق والمؤانسة من مكارم الاخلاق ومحاسنها أما اتباع الهوى والنذالة وقلة الادب وسوء الخلق ، فلم يكن لها مكان فى ما تعده الانسانية من مكارم الاخلاق وكذلك لم تزل الانسانية تجل قدر أداء الواجب وحفظ العهد والنشاط فى العمل والشعور بالتبعة ، كما أنها لم تنظر قط بعين الاستحسـان الى الذين لا يقـومون بواجباتهم ولا يوفون بعهودهم ومواعيدهم ولا ينشطون للعمل والجد ولا يأبهون لمـا يترتب عليه من التبعات .

هذه الصفات كلها شخصية فـردية ، أما الشؤون الاجتماعية وحسناتها وسـيئاتها وصـفاتها الحميـدة والذميمة ، فما فتئت تنظر اليها الانسانية بعين واحـدة وتزنها بميزان واحـد ، فما عـرفت من بين المجتمعات

البشرية مستحقا للاجلال والتوقير الا المجتمع الذى يتمتع بحسن الادارة وجودة النظام ويرفرف عليه لواء التعاون والتكافل والتحاب والمناصحة والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس ، ولم تنظر قط بعين الاعجاب والتوقير الى مجتمع خيمت عليه عناكب التشتت •والتفرق والفوضى واضطراب الاحوال • وأحاط به من كل جانب التباغض والتنافر والتحاسد والجور والتفاضل بين أفراد البشر •

وكذلك أمر السجايا والطباع • خيرها وشرها • لا يزال على ما كان عليه فى كل الازمان السالفة • فما نظرت الانسانية الى أعمال السرقة والزنا والقتل والتلصص والتزوير والارتشاء والبذاءة وايذاء الناس والغيبة والنميمة والحسد والقذف والافساد فى الارض بنظر التقديس والتمجيد • كما نظرت الى بر الوالدين والاحسان الى ذوى القربى واكرام الجيران ومناصرة الاصدقاء على الحق والاشراف على حاجات اليتامى

والمساكين وعيادة المرضى ومساعدة البائسين واعانة المنكوبين • وكذلك ما أنزلت الختال والاشر والمرائى والمنافق واللجوج والشره منزلة الاجلال والاحترام • كما أنزلت عفيف المئزر فكه القول لين العريكة الناصح الامين•

وجملة القول أن الانسانية ما اعتبرت قوامها وما عدت خير أهل الارض وأكرمهم الا الصادقين فى أقوالهم• الذين يوثق بهم ويعتمد عليهم فى كل شأن ، والذين ظاهرهم وباطنهم سواء وأعمالهم تطابق أقوالهم • والذين يقنعون بحظوظهم وحقوقهم ويتسابقون الى أداء ما عليهم من الحقوق والواجبات لغيرهم ، والذين يعيشون عيشة الامن والدعة ويأمن غيرهم شرهم ولا يرجى منهم الا الرشد والخير •

فتبين من ذلك أن القواعد الخلقية هى حقائق ثابتة عالمية ما زال جميع البشر على معرفة بها • فليس الخير والشر مما يخفى على أحد حتى يكون بحاجة الى البحث عنه اذا أراد معرفته والوقوف عليه ، بل انهما مما عهده

ابن آدم أول مرة ، وقد وهب الله له الشعور بهما وأودعه جبلته التى فطره عليها ومن ثم ترى أن القــرآن يسمى الخير (بالمعروف) والشر (بالمنكر) • ومراده بذلك أن المعروف ما عرفه الناس ورغبوا فيه واستأنسوا به • وأن المنكر ما أنكره الناس واشمأزوا منه واســتنكفوا عنه • وفى هذا المعنى نفسه ورد فى التنزيل (سورة الشمس :٨) « فألهمها فجورها وتقواها » أى النفس الانسانية •

وربما يسائل القارىء فى هذا المقام فيقول : اذا لم تزل محاسن الاخلاق ومساوئها معروفة فى العالم ولم يزل أهل هذه المعمورة منذ عمروها على رأى واحد فى حسن بعض الصفات وقبح بعضها • فلم هــذه النظم الخلقية المختلفة المثبتة فى العالم ؟ وأى شىء سبب الفــرق بينها وميز بعضها من بعض ؟ وما الذى نستند اليه فى قولنا ان الاســلام له نظام خلــقى خاص ؟ ثم ما هى المـــزايا والخصائص التى يمتاز بها نظام الاسلام الخلقى من بين

النظم الاخرى والتى كانت ، ولا تزال • غرة فى تاريخ المناهج الخلقية ودرة فى تاجها ؟

فاذا تعرضنا للنظم الخلقية المختلفة فى العالم لادراك هذه المسألة يتراءى لنا فى أول وهلة أنها تفترق فى ما بينها فى ادماج مختلف الصفات الخلقية فى نظامها الشامل وتعيين حدودها ومكانتها ومواضع استعمالها والتوفيق بينها • ثم اذا دققنا النظر فيها وسبرنا غورها تبين لنا سبب هذا الفرق • وهو أن هذه النظم تختلف فى تحديد معيار للحسن والقبح فى الاخلاق • ووسيلة للعلم يعرف بها الخير من الشر • كما لا تتفق فى تقرير القوة المنفذة Sanction التى تعمل عملها وراء القانون وتجعله نافذا فىالناس وتعيين الوازع الذى يحمل المرء على اتباع القانون والمواظبة عليه • ثم اذا بحثنا عن أسباب هذا الاختلاف وأعملنا فيها الفكر والروية ، ظهرت لنا الحقيقة واضحة وهى أن الذى بدد طرق هذه النظم الخلقية جمعاء وأبعد بعضها عن بعض ، أنها تختلف فى التصور لهذا الكون

ومنزلتها فى نظامه الواسع وغاية الحياة الانسانية فيه •
وهذا الاختلاف هو الذى أثر فيها أثره وتولد عنه الاختلاف
الاساسى حتى فى حقيقتها وطباعها وأوضاعها •

ان المسائل التى يقوم عليها أساس الحياة البشرية
وتعيين اتجاهاتها فى هذه الحياة الدنيا هى أنه : هل هناك
اله لهذا الكون أم لا ؟ فاذا كان ، فهل هو اله واحد أم معه
آلهة أخرى ومن هو الاله الذى نؤمن به من بينها ؟ وما هى
صفاته التى يتصف بها ؟ وما هى العلاقة بيننا وبينه ؟ وهل
تفضل بارشادنا ودبر أمر هـدايتنا أم لا ؟ وهـل نحن
مسؤلون بين يديه ؟ فان كنا كذلك فما الذى نحاسب عليه؟
ثم ما هى غاية حياتنا ومآل أمـرها الذى نجعـله نصب
أعيننا ونعمل وفق مقتضياته فى هذه الحياة الدنيا ؟

فهذه مسائل أساسية خطيرة يتوقف على جـوانبها
نشأة نظام الحياة الانسانية • فلا ينشأ نظام الاخلاق الا
وفق ما يناسب حقيقة هذا الجواب ، ويتعذر على فى هذه
المحاضرة الضيقة النطاق أن أفصل القول فى نظم الحياة

المختلفة فى العالم . فأخبركم بما اختاره كل واحـد منها جوابا عن هذه المسائل الاساسية . ثم ماذا أحدث هـذا الجواب من الاثر والسمة فى أشـكالها وتعيين الطـرق لسيرها . بيد أنى أقتصر على الاسلام من بينها وأتصدى لمـا اختاره جوابا عن هذه المسائل وايضـاح ما جاء من نظام مخصوص للاخلاق على أساس هذا الجواب وطبق مقتضياته .

فهو يقول جوابا عن هذه المسائل : ان لهـذا الكون الها وانه ما من اله الا الله فهو الذى خلـق هـذا الكون وأوجد كل ما فيه . وهو المتصرف فى أمره لا شريك له فى ذلك . وله الامر والنهى وهو رب السموات والارض ومن فيهن . وهذا النظام الكونى الذى نراه سـائرا بانتظام وثبات لا يسير الا مذعنا لامره ومشيئته وهـو الحكيم القدير عالم الغيب والشهادة الذى لا يغـرب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ، الملك القـدوس الذى يجرى أمره فى هذا الكون بقدر معلوم لا يتطرق اليه وهن

ولا خلل ، فالانسان عبد لله بخليقته وجبلته ولا وظيفة له فى الدنيا الا أن يعبده وينقاد لامره ، ولا معنى لحياته الا أن تكون بأجمعها عبودية لله خالصة • وليس من وظيفة الانسان أن يعين من تلقاء نفسه منهاجا لعبوديته ، بل انما ذلك على الله الذى خلقه وجعله عبدا من عباده • فقد أرسل الله تبارك وتعالى اليه الرسل وأنزل معهم الكتاب لهدايته وارشاده الى طريق الخير والسعادة • فواجب عليه أن لا يقتبس نظام حياته الا من تلك المشكاة المضيئة النيرة • ثم أن الانسان مسؤول أمام ربه عما كسب واكتسب فى حياته الدنيا ، ومحاسب بين يديه فى الدار الآخرة لا فى هذه الدنيا • وما هذه الحياة الدنيا الا بلاء له من ربه ليختبره • فالانسان ينبغى له أن لا يضع لحياته غاية يطمح اليها ببصره ويسعى وراء تحقيقها الا أن يكون من الفائزين فى الدار الاخرة عند ربه والانسان داخل فى هذا الامتحان بجميع قواه ، فان فيه ابتلاء لجميع قواه ومواهبه وامتحانا لحياته من جميع نواحيها • فهو يختبر

فى جميع ما يحاوله ويزاوله من الاشياء فى هــذه الدنيــا اختبارا خالصا لا يشوبه شىء من أدران هذا العالم .

أضف الى ذلك أن هذا الاختبار يقوم به الذى عنده علم الكتاب والذى لا يقف علمه ومعرفته عندما سجله عن أعمال الانسان وحركاته فى جميع أجزاء هــذا الكون من الارض والهواء والماء وأجواء الفضاء وفى قلب الانسان وذهنه ويده ورجله . بل يحيط علمه بكل ما يخطر فى نفس الانسان من الهــواجس والارادات ولا يعزب عنه منها شىء ..

هذا هو جواب الاسلام عن مسائل الحياة الاساسية، وهذا هو تصوره للكون ومنزلة الانسان فيه . وهو يعين الغاية الحقيقية السامية التى ينبــغى أن تكون الغــاية القصوى من مجهودات الانسان ومساعيه فى هذه الدنيا. ألا وهى « ابتغاء وجه الرب تعالى ونيل رضاه » فهذا هو المقياس الذى يقاس به فى نظام الاسلام الخلقى كل عمل من أعمال الانسان ويحكم عليه بالخير أو الشر . ثم ان

هذا التعيين يزود الاخلاق الانسانية بمحور تدور حوله حياة البشر بحذافيرها • فلا تبقى بعد كسفينة فى البحر تتقاذفها الرياح وتقلبها الامواج يمينا وشمالا • وكذلك يضع هذا التعيين بين يدى الانســان غاية حقيقية يمكنه بعدها أن يعين لجميع الصفات الخلقية فى الحياة حدودا ومنازل وصورا عملية ملائمة لكل واحد منها • كما يظفر من أجلها بالقيم الخلقية Ethical Values المســتقلة التى لا تزال قائمة متأصلة فى مكانها على تقلبات الاحوال والشؤون • وفوق كل ذلك اذا تعين « ابتغاء وجه الرب ونيل رضاه » غاية منشودة للانسان ومــرمى لمساعيــه وجهوده • فقد ظفرت الاخلاق البشرية بغــاية ســامية تمكنها من الارتقاء الخلقى الى ما لا نهاية له من معــارج النمو والرقى ولا يشوبها أبدا أدناس عبودية الاغراض والمآرب النفسية فى مرحلة من مراحل سيرها الحثيث •

فكماأن الاسلام ينعم علينا بفضل تصوره للكون والانسان بهذا المقياس ، يزودنا فى الوقت نفسه بوســيلة دائمــة

لمعرفة الحسن أو القبح الخلقى • والاســلام لم يحصر علمنا بالاخلاق على العقــل أو المشيئة أو التجــارب أو العلوم الانسانية فقط ، حتى تتغير أحكامنا الخلقية بتغيير هذه الوسائل الاربع ولا يقر لها قرار أبدا • بل الاسلام يمنحنا مرجعا ثابت الاركان يزودنا بالتعاليم الخلقية فى كل حال وزمان ، ألا وذلك المرجع هــو كتاب الله وســنة رسوله الكريم ﷺ ، وهذه التعاليم ترشدنا الى الطــريق الاقوم وتضىء لنا الخطة المستقيمة فى كل شأن من شؤون الحياة من أتفه المسائل البيتية الى المســائل السياســية الدولية العظيمة ومشاكلها الخطيرة • ونجد فيها انطباقا متسعا لاصول الاخــلاق على شــؤون الحياة المختلفــة لا نحتاج بعده فى مرحلة من مراحل الحياة الى وســيلة للعلم أخــرى •

ثم نجد فى تصور الاسلام هذا ، للكون والانسان ، تلك القوة الوازعة التى لا بد لقانون الاخــلاق أن يكون مستندا اليها،وهذه القوة قوة خشيةالربتعالى والاشفاق

من المسؤولية الاخروية والخوف من ســوء العاقبــة فى المستقبل السرمدى ، ولا ريب أن الاسلام يريد أن يوجد ويهىء من الهيئة الاجتماعية والرأى العــام ما يحمــل الافراد والطبقات ويجبرهم على القيام بالقواعد الخلقية والدأب عليها ، كما يريد أن يقيم نظاما سياســيا يتمكن بسلطانه من تنفيذ القانون الخلقى فى الناس بالقسر ، الا أن الحقيقة ، مع ذلك ، أنه لا يعــول على هــذا الوازع الخارجى مثل ما يعول على الوازع النفسى الذى تنطوى عليه عقيدة الايمان بالله واليــوم الآخــر ، ومن ثم يريد الاسلام ــ قبل أن يأمــر الانســان بالتقيد بالاحــكام الخلقية ــ أن يلقى فى روعه ويلقنه :

« انما أمرك الى الله البصير الخبير الذى لا يعــزب عنه من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، وهو يراك أين ما كنت وكيف ما كنت ، يمكنك أن تتوارى من غيره ولا يمكنك أن تتوارى منه ، وتقدر أن تخدع جميع أفراد البشر ولا تقدر أن تخدعه هو ، وتستطيع أن تعجز كل من

فى الارض ولا تستطيع أن تعجــز من خلق السماوات والارض • انما ينظر العالم الى ما يظهر لهم من أعمالك وأخلاقك • ولكنه عالم الغيب والشهادة يعــرف أسرار النفس ونجوى القلب • فمهما أتيت من الاعمال فى حياتك الفانية هذه فلا مندوحة لك عن ارتشـــاف كأس المـــوت والرجوع الى الحكمة التى لاتنفعك فيها محاماة ولا ارتشاء ولا شفاعة ولا شهادة زور ولا خـــديعة ولا غش ، يوم يضع ربك الموازين بالقسط ويجزى عباده على أعمـــالهم جـــزاء وفاقا » •

فالاسلام يثبت هذه العقيدة ــ عقيدة الايمانواليوم الآخر ــ فى قلب الانسان فكأنه بذلك يلقى فى روعه حارسا من الشرطة الخلقية يدفعه الى العمل ويحثه على الائتمار بأوامر الله جل وعلا ، ســـواء عليه أكان فى الخـــارج من الشرطة والمحكمة والسجن ما يحمله على القيام بها أم لا• وهذا الحارس الداخلى وهذا الوازع النفسى هـــو الذى يشد عضد قانون الاسلام الخلقى ويجعـــله نافـــذا بين

الناس فىحقيقة الامر ، وان كان مع ذلك من تأييد الحكم والرأى العام ما يسهل تنفيذه فذلك أجدى وأزكى . والا فالحقيقة أن هذا الايمان وحده يضمن هداية الفرد المسلم والامة المسلمة الى سـواء الطـريق ، اذا كانت خالطت بشاشته قلوبهم وتغلغلت هذه العقيدة فى نفوسهم تغلغلا

زاد على ذلك أن تصـور الاسلام هـذا ، للكون والانسان ، يهيىء عوامل تستحث المـرء وتحضـه على العمل وفق ما يقتضيه القانون الخلقى ، وكفى المرء دافعا الى الاذعان لمرضاة الله وامتثال أوامـره أن يرضى بالله ربا وبعبادته منهجا فى الحياة وبرضاه غاية لها . والعامل الاخـر الذى يزيد من هـذا العامل قـوة الى قـوته هو الايمان باليوم الاخر واعتقاده أن من أطاع الله وائتمر بأوامره فطوبى له فى الدار الاخرة السرمدية ، فانه يفوز بحياة طيبة ومستقبل زاهر ونعيم مقيم ، وان تحمل فى هذه الدار الفانية من صنوف الاذى والآلام والمصـائب والشدائد ، وأن من قضى حياته فى هذه الدنيا عاصيا الله

عاتيا أوامره ، فلا جرم أن مصيره فى الآخرة الى العقاب الصارم والعذاب الدائم •• وان تقلب فى الدنيا فى صنوف النعم وأنواع الرغد من متـــاع الحياة الدنيـــا ، فذانكما الرجاء والخوف اذا اجتمعا فى رجـــل واحـــد وتمكنا من سويداء قلبه فكأنه نشأ فى أعماق فؤاده عامل قوى يقدر أن يحثه على الخير ويبعثه على الاستمساك بعروة الحق فى أوقات وأحوال ربما يظهر له فيها أن الاستمساك بالحق يضر بمصالحه فى هذه الحياة الدنيا أيما ضرر • وكـــذلك يقدر هذا العامل النفسى على أن يقيه منازع السوء ويبعده عن مواضع الفساد والشر فى أحوال يتراءى له فيها أن الشر فيه متعة للنفس ومنفعة فى هذه الحياة الدنيا •

فالذى يتضح بهذا التفصيل أن الاسلام له تصور خاص للكون ومقياس لنشر الخير ومرجع لعلم الاخـــلاق وقوة منفذة خاصة به وعامل يدفع الى العمل ، وهو يختار فى هذا الباب طريقا غير طرق ســـائر النظم الخلقية فى العالم • فيرتب بمساعدة هذه العوامل نفسها مواد الاخلاق

المعروفة وفق مقاديره الخاصة وينفذها فى جميع شـــعب الحياة ونواحيها • فلهذا يسوغ لنا القول بأن الاسلام له نظام خلقى جامع ملائم لطبيعته وتعاليمه •

ولهذا النظام الخلقى خصائص ومــيزات لا يمكن استيفاؤها فى هذا المقام ، الا أننى أريد أن أذكــر ثلاث خصـــائص بارزة هى زبدتها ولبابها ، بل الحـــق أنها من أوليات الاسلام فى باب النظام الخلقى :

فالميزة الاولى : أنه يجعل « ابتغاء وجه الرب ونيل رضاه » غاية منشودة فى الحياة الانسانية ، ويجعل بذلك مقياسا ساميا للاخلاق لايقوم معه فى وجه الارتقاء الخلقى شىء يعوقه عن الارتقاء والتقدم • وكذلك يقر مــرجعا ، للعلم • فهو ينعم بذلك على الاخلاق الانسانية من الثبات والرصانة بما يمكن معه الرقى والازدهار ولا يمكن التلون والتقلب حينا بعد حين • وكذلك يهىء للاخلاق من خشية الله تعالى قوة منفذة تحث الانسان على القيام والاضطلاع

بمقتضياتها من غير أن تكون فيها يد لعامل من العـــوامل الخارجية . وكذلك يلقى فى روع الانسان ويكون فيــه ، بفضل عقيدة الايمان بالله واليوم الآخر . قوة حثيثة ترغب المرء وتشوقه الى العمل بقانون الاخلاق من تلقاء نفسه .

والثانية منها : أنه لا يشكل ولا يوجد بهذا التحريض والترغيب المحض أخلاقا وآدابا مبتكرة غير معهودة . ولا يحاول حط بعض الاخلاق الانسانية المعروفة ورفع بعضها فهو لا يتناول من الاخلاق الا ما كان معروفا عند جميــع الناس حتى لا يغادر من الاخلاق المعروفة صــغيرة ولا كبيرة الا اقتناها وأخذها كلها . ثم يضع كل واحدة منها موضعها من الحياة الانسانية ويحلها محلها اللائق بها من مســالك الحياة البشرية ويوســع فى تطبيقها على الحياة الانسانية توســيعا عظيما . الى أن لا تبــقى ناحية من نواحى الحياة ولا شعبة من شعبها كالاعمــال الفــردية والشؤون البيتية والعشرة المدنية . والشؤون السياسية والاقتصــادية والســوق والمدرســة والمحكمة والشرطة

والمعسكر وساحة الحرب ومؤتمرات الصلح وما الى ذلك من نواحى الحياة الانسانية الاخرى — فلا تبقى ناحية من نواحى الحياة ولا شعبة من شعبها الا وترى فيها للاخلاق أثرا جامعا متغلغلا فى أعماقها ، فالاسلام يجعل الاخلاق مسيطرة فى جميع نواحى الحياة ومهيمنة عليها ، وهو يريدبذلك أن ينتزع زمام شؤون الحياة من أيدى الشهوات والاغراض والمصالح ، ويضعه بيد الاخلاق الزكية والآداب الحسنة ،

والميزة الثالثة لنظام الاسلام الخلقى انه يطالب الناس ويلتمس منهم اقامة نظام للحياة ينهض بنيانه على المعروف ولا يشوبه شىء من المنكر ، فيدعوهم قاطبة الى أن يقيموا الخيرات ويعمموا الحسنات التى نظرت اليها الانسانية فى كل زمان ومكان بنظر الاكبار والاجلال ، وأن يرفضوا ويقضوا على المنكرات التى طالما نظرت اليها الانسانية بعين الازدراء والاحتقار ، فهذه الدعوة هى التى دعا اليها الاسلام جميع أبناء البشر ، فالذين

استجابوا له ولبوا دعـــوته جمعهم على كلمته الجامعـــة واتخذ منهم أمة مسلمة ، وما كان غرضـــه بجعلهم أمـــة واحدة الا أن يجمعوا ما فى مستطاعهم من الجهود ويسعوا سعيا اجتماعيا فى اقامة المعروف وتدعيمه وتعميمه . وكبح جماح المنكر والقضاء عليه واجتثاث شجرته من جذورها فان كانت هذه الامة قد عادت الى اقتراف المنكر واجتراح السيئات وبدأت تسير سيرة من يقـــاومون المعـــروف ويسعون وراء اطفاء نوره ، فعلى الدنيا وعلى هذه الامة السلام ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

النظام السياسى

التوحيد والرسالة والخلافة هى دعائم ثلاث يقوم عليها بناء نظام الاسلام السياسى • وليس من الميسور أن نحيط بنظم السياسة الاسلامية بجميع فروعها وشعبها • الا اذا فهمنا هذه المبادىء • التوحيد والرسالة والخلافة • حق الفهم • فيجمل بى • قبل كل شىء ، أن أتعرض لشرحها • واحدة بعد أخرى • متحريا فى ذلك الايجاز •

التوحيد : أما التوحيد فمعناه أن الله تعالى هو الخالق لهذا العالم ومن فيه من بنى آدم • فهو ربهم ومالكهم • وليس الحكم والسلطان والامر والنهى الا له وحده • وهو مستأثر بالطاعة والعبودية لا يشاركه فيها أحد سواه • ثم ان نفوسنا التى بها حياتنا وقوانا ومواهبنا التى نستخدمها فى ما نشاء ، وحقوقنا التى نتصرف فيها فى هذا الكون وهذا الكون الذى نتصرف فيه ، ليس شىء من ذلك خلقناه وأوجدناه من تلقاء أنفسنا أو أوتيناه على علم من عندنا • بل الله تعالى هو الذى أكرمنا منا بكل ذلك

من غير أن يشاركه فى ذلك أحد ، فلا يحل لنا فى قليل أو كثير أن نعين غاية هدايتنا أو نقيم حدودا ومنازل لقوانا وحقوقنا حسب ما نشاء ونرضى ، وكذلك لا يجوز لاحد، كائنا من كان ، أن يتصدى لذلك ويتدخل فيه ، بل انمـا يرجع كل ذلك خاصة الى الله تبارك وتعـالى ، فانه هـو الذى ، وحده ، فطرنا وأودعنا هذه الحقـوق والادوات ومكننا من التصرف فى كثير مما خلق فى هذه الدنيا .

هذا هو التوحيد . وهو ينفى ، كما ترى من شأنه ، فكرة حاكمية البشر ويريد القضاء عليها قضـاء مبرما ، وسواء أكانت هذه الحاكمية لفرد من الافراد أو طبقة من الطبقات أو بيت من البيوتات أو أمة من الامم أو لجميع من على ظهر هذه الارض من أبنـاء البشر ، الحـاكمية لا يستحقها الا الله وحده عز وجل ، فلا حاكم الا الله ولا حكم ا لاحكمه ولا قانون الا قانونه .

الرسالة : أما الرسالة فهى الوسيلة والتى يصل بها

الينا القانون الالهى . فالذى تلقيناه بواسطتها شيئان : أولهما كتاب الله الذى بين الله فيه قانونه . والثانى شرح لهذا الكتاب وتفسير له مستند قدمه الرسول بقوله وفعله من حيث انه نائب عن الله وخليفته فى هذه الدنيا .

أما الكتاب فقد بين الله فيه من الاصول والمبادىء جميع ما ينبغى أن يقوم عليه نظام الحياة الانسانية . وأما ما نحتاج اليه بعد ذلك من الشرح والبيان لتلك الاصول والمبادىء فقد بينه الرسول ﷺ ومثله فى حياته تمثيلا بتأسيس نظام للحياة الانسانية وتدبيره وفق ما اقتضاه الكتاب . حتى يكون ذلك أسوة حسنة لمن بعده فمجموع هذين الاصلين يسمى فى المصطلح الاسلامى « بالشريعة » فهذا هو الدستور الاساسى الذى ينهض عليه صرح المملكة الاسلامية .

الخلافة : أما الخلافة فهى فى لغة العرب تطلق على النيابة . فمنزلة الانسان فى هذا الكون من الوجهة الاسلامية أنه خليفة لله ، أى نائب عنه فى مملكته لا ينصرف

فيها الا طبقا لحق الاستخلاف والتصرف الذى وهبه الله اياه . أو لا ترى أنك اذا وكلت الى أحـــد أمـــر ضيعتك وجعلته نائبا فيها . تكون واثقا من نفسك بأربعة أمور : أولا أنك أنت صاحب الضيعة ومالكها الحقيقى . لا هذا الذى وكلت اليه أمرها .ثانيا أنه يجب على هذا الرجل أن يتصرف فى ملكك حسب ما أمرته به أنت وأرشدته اليه . ثالثا أنه لا ينبغى له أن يشق عصا طاعتك ويتعدى الحدود التى أقمت له ولعمله . ورابعـــا أن من واجبه فى هـــذه الضيعة أن يقضى منها ما تريد قضاءه أنت لا ما يريد هو نفسه .

فهذه الامور الاربعة قد اندمجت فى تصور النيابة اندماجا تاما . حتى انها لتخيل للمرء بمجرد ما ينطق بكلمة « النيابة » ويتفوه بها . فاذا رأيت نائبـــا لا يفى بهـــذه الشروط الاربعة ولا يؤدى واجبه وفق مقتضاها . قلت انه تجاوز حـــدود النيابة ونقـــض الميثاق الذى تتضمنه النيابة . فهكذا ترى هذه الامور الاربعة نفسها مضمرة

فى تصور كلمة « الخلافة » . والاسلام لا يريد بالخلافة اذ قال ان الانسان خليفة الله فى الارض . الا هذا المعنى بعينه فلا تكون الملكة التى تقوم بموجب هـــذه النظرية السياسية الا الخلافة الانسانية تحت السلطان الربانى الالهى ، وانما تكون غايتها المنشودة تحقيق مشيئة الرب تعالى وارادته مقتدية بهدايته من غير أن تتجاوز الحدود التى أقامها لها ولعملها .

ومما يناسب ذكره فى هذا المقام أن الاسلام لا ينوط أمر « الخلافة » بفرد من الافراد أو بيت من البيوتات أو طبقة من الطبقات ، بل يفوض أمرها الى جميـــع أفـــراد المجتمع الذى يؤمن بالمبادىء الاســـاسية من التوحيـــد والرسالة ويظهر كفاءته واستعداده للقيام بكل ما تنطوى عليه كلمة « الخلافة » وتقتضيه فاذا وجد فى الدنيا مجتمع متصف بهذه الصفات ، فلا ريب أنه جدير بالخلافة . وأن هذا هو المقام الذى تنشأ فيه وتبتدى منه فكرة الجمهورية

فى الاسلام . فكل واحد من أفراد المجتمع الاسلامى له نصيب من الخلافة وحق فى التمتع بها ، وهذه الحقــوق سواء فيها جميع أفراد المجتمع كأسنان المشط . لا يحل لاحد أن يحرم هذه الحقوق من شاء من أفراد المجتمع . فالظاهر أن كل حكومة تتهيأ لتسيير دفة هذهالملكة وادارة أمرها لا تتألف ولا تشكل الا بآراء الجمهور وتأييدهم . وهم الذين يخولونها جانبا من حقوقهم — حقوق الخلافة — فلا تتشكل الا بآرائهم ولا تعمل عملها الا بتــأييدهم ومشورتهم . فمن نال رضاهم وحاز ثقتهم ، ينوب عنهم فى القيام بواجبات الخلافة . ومن فقد ثقة أفراد المجتمع به ، لا مندوحة له عن اعــتزال هــذا المنصب الجلل . فالجمهورية الاسلامية اذن جمهورية كاملة بالغة فى الكمال مبلغا ليس وراءه من غاية ، غير أن الذى يميز الجمهورية الاسلامية من الجمهورية الغربية السائدة المعروفة اليوم فى العالم ، أن نظرية الغرب السياسية تقــول بحــاكمية الجمهورية ، والاسلام يقول بخلافة الجمهور . وبيان ذلك

أن حقوق الحكم ، والامر فى الجمهورية الغربية يستبد بها الجمهور ، وهم الذين يمتلكون ناصيتها ، فينسون وينفذون فى الارض ما يشاؤون من القوانين والشرائع ، وان قصارى ما تهدف اليه حكومتهم انما هو ارضاء عامة سكان المملكة وجلب تأييدهم وقضاء مشيئتهم . والاسلام ، بخلاف ذلك ، ليس الحكم والامر فيه الا لله وحده ، فهو الذى يستأثر بحق وضع القانون والشريعة لعباده من غير مشارك ولا منازع أما الجمهور فليست منزلتهم فى الاسلام الا كمنزلة الخلفاء الذين يضطرون بطبيعة منزلتهم أن يقتفوا آثار الشريعة الالهية التى جاء بها الرسول من عند ربهم ولا يحيدوا عنها قيد شعرة . ولا تكون غاية من شكلوها وألفوها من الجمهور الا ابتغاء وجه الله تعالى وتنفيذ أمره فى أرضه . وخلاصة القول أن الجمهورية الغربية تتبوأ منصب الالوهية عتوا واستكبارا فى أرض اللهبغير ما حق وتستخدم قواها ونفوذها حسب ما شاءت، وشاءت أعضاؤها . وان الجمهورية الاسلامية عبودية

اجتماعية لله تبارك وتعالى مقيدة بحبائل شريعته لا تستعمل قواها ونفوذها الا فى ضمن الحـــدود التى أقامها لعملها مقتدية بالهداية الربانية .

فالآن أريد أن أعرض عليكم — وعلى وجه الايجاز — صورة واضـــحة للمملكة التى يقــوم بناؤها على دعائم التوحيد والرسالة والخلافة هذه :

ان غاية هذه المملكة — كما يبين الله تعالى فى عــدة مواضيع من كتابه العزيز — أن تقيم المآثر والمكارم التى يحب الله أن تتحلى بها الحياة البشرية وتبث خيراتها وتبذل الجهد المستطاع فى رقيها وتعميم مبراتها ، وأن تستأصل وتنـــفى عن الارض كل ما يبغضـــه الله من الفـــواحش والمنكرات وتطهرها من شوائبها وأدناســـها فالاســـلام ما جاء ليقيم فى هذه الدنيا مملكة من حيث انها مملكة ويعنى بتدبير شؤونها وادارة أمرها فقط ، ولا لان يهتم بمصالح أمة من الامم دون سائرها ويستنفد جهـــوده وحيله فى

تحقيق مطالبها الاجتماعية • كلا ، ليس الامــر كذلك • بل الحق أن الاسلام يضع بين يدى مملكته التى يقيمها وفق مبادئه وأصوله غاية أسمى وأرفــع من ذلك بكثير ويحتم عليها أن تستخدم فى سبيل تحقيقها ما يتسنى لها من الوسائل وما أوتيت من القوى • وذلك ليظهر ما يحب الله أن تتزين به حياة عباده فى أرضه وتصطبغ بصبغته من النزاهة والجمال والخير والرشد والفــلاح والســعادة ويقضى على كل ما يتوقع منـــه أن يكون مبعث فســاد فى الارض ويأتى على مصالح عبــاد الله من صــنوف الشر والفوضى والاباحية • وكذلك يعرض علينا الاسلام صورة واضحة للشر والخير ، حتى يمكننا أن نرى فى مرآتها هذه المصالح المرضية وهذه الفواحش المنكرة المبغضة • فالمملكة الاسلامية اذن تستطيع فى كل عصر وفى كل بيئة أن تضع برنامجها الاصلاحى اذا وضعت أمام عينها هذه الصورة الواضحة للشر والخير •

والذى يقتضيه الاسلام اقتضاء ويطالب أبنــاءه بالاستمساك به ان لا يحيدوا عن المبادىء الخلقية فى شأن من الشؤون فهكذا يعين لمملكته خطتها الوثيقة الدائمــة ان لا تكون سياستها مبنية الا على الصدق المحض والعدالة الناصعة والامانة النقية الطاهرة وهو لا يرضى فى حين من الاحيــان أن تركن مملكته الى شىء من الغــدر والغش والاعتداء تحقيقــا لمصــالحها الوطنيــة أو الادارية أو القومية • وهو يؤثر الحق والامانة والعدل على المــآرب والاهواء والاغــراض فى كل ما يعــرض له من الاواصر والصلات بين الراعى والرعية فى داخل البلاد وبين أمــة وأخرى فى خارجها • فيعهد الى المملكة الاسلامية والذين يقومون بأمرها — كما يعهد الى الفرد المسلم — أن أوفوا بعهودكم اذا عاهدتم وأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفعلوا الا ما تقولون ولا تقــولوا الا ما تفعلون ولا تنسوا ما لغيركم من الحقوق عليكم • كما لا تنسون ما عليهم من الواجبات لكم • ولا تجعــلوا

الصولة والمنعة وسيلة للظلم والشطط والاعتداء واجعلوها وسيلة لاقامة الحق والعدل • واعلموا أن الحق حق فى كل حال فسارعوا الى أدائه ، وأن السلطان وديعــة من الله ، فلا تستعملوه الا وأنتم مستيقنون أنكم محاسبون عليه بين يدى ربكم حسابا كاملا •

ثم ان المملكة الاسلامية ، وان قامت فى ناحية خاصة من نواحى الارض وفى قطر من أقطارها ، لا تحدد الحقوق البشرية ولا الحقوق المدنية بالحــدود الجغــرافية • أما البشرية مثلا فيضع لها الاسلام عدة من الحقوق السياسية ويأمر بمراعاتها والمحافظة عليها فى كل حال ويوجبها لكل انسان على وجه الارض سواء أكان هــذا الانسان ممن يسكن داخل المملكة الاسلامية أو خارجها ، عدوا كان أو صديقا ، متوددا كان لها أو معاندا لها بالحــرب ، والذى يهمه فى هذا المقام انما هى حرمة الدم البشرى فانه محرم فى كل حين ولا يجوز سفكه الا بالحق ولا يحل فى شريعته الاعتداء على النساء والاطفال والعجزة والمرضى والجرحى

فى أى حال • وحرمات النساء وأعراضهن مما يجب الذب عنه والاحتفاظ به • لا يجوز انتهاكها والاعتداء عليها أبدا• وكذلك من حق الجائع أن يطعم ومن حق العارى أن يكسى ومن حق الجريح أن يداوى ومن حق المريض أن يواسى ، وان كان هذا الجائع والعارى والجريح والمريض من قوم عدو للمملكة متربصين بها الدوائر • فهذه وأمثالها من الحقوق الاخرى انما قد أنعم بها الاسلام على الانسان من حيث انه انسان ، ولها منزلة الحقوق الاساسية فى دستور المملكة الاسلامية •

أما الحقوق المدنية فلا يخص بها الاسلام من ولدوا فى داخل المملكة الاسلامية فحسب ، بل الحقيقة أن كل مسلم ، أيا كان مولده ونبته يخوله الاسلام التمتع بالحقوق المدنية بمجرد دخوله فى حدود المملكة الاسلامية ولا يكون حظه منها دون حظوظ الذين ولدوا فى تلك المملكة وكانوا أهلها كابرا عن كابر • ومهما تعددت الممالك الاسلامية فى مختلف أرجاء الارض وكثر عددها ، فلا بد

لها جمعاء أن يكون أهلها مشتركين فى الحقـــوق المدنية • والمسلم لا يحتاج أبدا الى جـــواز الســـفر حينما أراد الدخول فى مملكة من هذه الممالك ، بل يمكنه فيها أن يترقى الى ما استطاع ويتأهل لمناصب المسؤولية العليا من غير أن يكترث لشيء مـــن نســـبه وعشـــيرته وطبقتـــه التى ينتمى اليهـــا •

والذين يقطنون المملكة الاسلامية من غير المسلمين قد عين الاسلام لهم حقوقا عديدة ، وهى بطبيعة الحـــال جزء لازم من أجزاء الدستور الاسلامى ولا تنفـــك عنه أبدا • فيقال لامثال هؤلاء من غير المسلمين فى المصطلح الاسلامى أهل الذمة ، وهم الذين ضمن لهم الاســـلام المحافظة على أنفسهم • فلا ريب أن نفوس أهل الذمـــة وأموالهم وأعراضهم محرمة ، كما تحرم نفوس المسلمين وأموالهم وأعراضهم ولا فرق بين المسلمين وأهل الذمة فى شيء من القوانين الجنائية والمدنية • ولا يحل للمملكة الاسلامية أن تتدخل فى شيء من القوانين الشخصية لاهل

الذمة ولهم حرية فى عقـائدهم وأفـكارهم وعبـاداتهم وشعائرهم الدينية •

فهذا غيض من فيـض من الحقـوق التى أعطاها الدستور الاسلامى رعيته من غير المسـلمين ، وهى من الحقوق المستقلة الثابتة التى لا يجـوز انتزاعهـا منهم وسلبهم اياها ما داموا فى نطاق ذمتنا وتحت حمـايتنا • ومهما اضطهدت مملكة غير مسلمة رعيتها المسلمة وأذاقتهم صنوفا من القهر والعذاب ، فلا يجوز لملكة اسلامية بازاء ذلك كله أن تعتدى على رعيتها من غير المسلمين وتحرمهم حقوقهم خلافا للشريعة الاسلامية ونقضا للمواثيق ولعمر الحق لو قتل كل مسلم خارج مملكتنا ، لا يحل لنا أبدا أن نريق فى حدود مملكتنا ولو دم فرد من أهل الذمة الا بالحق

ويفوض أمر ارادة المملكة الاسلامية وتسيير دفتها الى أمير يضارع فى منصبه والقيام بأمر المملـكة رئيس الجمهوريات فى هذا العصر • فكل من آمـن بمبـادىء

الدستور وسلمها تسليما فمن حقه اذا كان بالغا أشده أن يبدى رأيه فى انتخاب الامير والذى يلاحظ بصفة خاصةفى انتخاب الامير هو التقوى والمعرفة التامـــة بالاســـلام والاهلية الكاملة لتدبير أمور الامة فى السلم والحرب • فلا يناط منصب الامارة الا بمن كان متخلقا بهذه الصـــفات مستوفيا لها، وكان حائزا لثقة الامـــة أكثر من غـــيره • ثم ينتخب لمساعدته مجلس الشورى الذى ينتخب أعضاءه عامة أفراد المجتمع • والامير حتم عليه أن يسوس البلاد بمشاورة أهل الحل والعقد ، أعضاء مجلس الشـــورى • وهو أمير ما دام مزودا بثقة الامة واعتمادها عليه • أما اذافقدها وأضاعها ، فلابد له أن يتخلىعن منصبه • غير أنه لا يزال على ذروة الامر ، مسموع الكلمة مطاع الامر نافذ القول ما دام مزودا بثقة الامة ، بل يجوز له فى تلك الحال أن يستأثر بحق الرفض والرد ويرفض آراء سائر أعضاء المجلس فى أمر يرى أن الحق على خلاف ما يرون ، ومن حق عامة أهل البلاد أن ينتقدوا حكومة الامير اذا رأوا فيها ما ينتقد

أما التشريع ووضع القانون فى المملكة الاسلامية • فلا يكون الا فى ضمن الحـــدود التى أقامتها الشريعـــة ولا يتجاوزها أبدا • والذى أنزله الله وما جاء به الرسول ﷺ من الواجب أن تنقاد لهما الامة انقيادا كاملا • فلا يحل لمجلس من المجالس التشريعية أن يحدث فيهما أدنى تغيير؛ أما الاحكام التى تحتمل وجهين فصاعدا فمن وظيفة الذين يتفقهون فى الدين أن يستجلوا فيها وجه الحق والصواب ويدركوا ما أرادت من ورائها الشريعة الغـــراء • فهـــذه الامور ، وما كان على نمطها ، ترد الى لجنـــة من العلماء والفقهاء تحت مجلس الشورى • ثم نجد بعد ذلك مجموعة عظيمة للامور التى لم تنص عليها الشريعة نصا خاصا ، فلمجلس الشورى أن يضع لها القوانين فى ضمن الحدود الشرعية •

والقضاء فى الاسلام لا سلطان عليه لهيئة الحكومة التنفيذية ولا للامير • فان من يتولاه ينوب عن الله عـــز وجل وهو مسؤول بين يديه رأسا • والقاضى ـــ وان قامت

بتوليته الحكومة — اذا تبوأ منصبه فى مجلس القضاء ؛
لا يحكم بين الناس الا بما أنزله الله وأرشد اليه رسوله
ﷺ ، ولا يكون الا فى مأمن من صدعه بالحق وعدله حتى من
رجال الحكومة أنفسهم ، ولابد لرئيس الحكومة نفسه أن
يحضر بين يديه كشأن عامة أهل البلاد اذا كان مدعيا أو
مدعى عليه . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

النظام الاجتماعى

النظرية التى يقوم وينهض عليها بناء نظام الاسلام الاجتماعى انما هى : ان أفــراد البشر كافة على ظهــر الارض كلهم من سلالة واحدة بعينها • فالله تعالى لم يخلق فى بدء الامر الا نفسا واحدة خلق منها زوجها وبث منهما جميع أفــراد البشر الذين نراهم اليــوم مستعمرين فى الارض قاطنين فى مختلف أرجائها • فظلت ذرية هــذين الزوجين فى أول أمرها أمة واحدة بدين واحد ولغة واحدة ولم يكن بينها شىء من التفاوت والتباعــد • ولكنهم كلما تكاثروا وازدادوا عددا ، ازدادوا انتشارا فى مختلف بقاع الارض وانقسموا انقساما فطريا بسبب هذا الانتشــار الى شتى الشعوب والامم والقبائل وتطرق الاختلاف الى لغاتهم وملابسهم وطرق معيشتهم وأثر جو مختلف مناطق الارض فى ألوانهم وسحنات وجوههم تأثيرا بالغا • فهذه الفوارق كلها فطرية موجودة فى عالم المشاهدة وواقــع الامر والحقيقة • فالاسلام يعترف بها حقيقــة ثابتــة

ويقرها ولا يريد القضاء عليها • بل فوق ذلك يقــول بأنها تنفعنا فى حالتنا الاجتماعية • اذ لا يمكن بيننا التعــارف والتعاون الا بواسطتها ، ولكنه مع ذلك يرفض كل ما ولدته هذه الفوارق بين الناس من عصــبيات الســلالة واللون والنزعات القومية والوطنية وبعدها خطأ وضلالا فــكل فرق بين الرجل والرجل على أساس الغنى والفقر والشرف والضعة والرحم والغربة مما سببه اختلاف النسبوالاسرة والبيئة يعــده الاســلام من باب خــرافات الجــاهلية وضلالاتها • وان رســالته الى كل من يمشى على هــذه المعمورة الارضية من أفراد البشر أن الله خلقكم جميعا من ذكر وانثى وأنكم اخوان فى ما بينكم وكلكم سواسية فى الحقوق البشرية ، لا فضل فى ذلك لاحد على آخر •

فهذا هو تصور الاسلام للانسانية ، ومن ههنا قوله انه لا يمكن أن يكون فرق جوهرى بين انسان وانســان لاجــل اختلافهم فى النسب واللون والوطن واللغة ، بل انما يتأتى ويظهر هذا الفرق الجوهرى بين مختلف أفراد

البشر لاجل أفكارهم وأخلاقهم وغاياتهم فى الحياة . فالشقيقان مثلا . وان كانا بوجهة النسب من أب واحد وأم واحدة . يصيران فى مضمار الحياة فى طريقين مختلفين اذا اختلفا فى الفكرة والخلق . وبعكس ذلك نرى رجلين آخرين ، قد بعدت بينهما الشقة فأحدهما فى الشرق الادنى والآخر فى الغرب الاقصى ، يسيران فى طريق واحد اذا كان بينهما الاتفاق فى الفكرة والتشابه فى الخلق

فيكون الاسلام على أساس هذه النظرية بازاء جميع مجتمعات العالم النسلية والوطنية والشعبية ، مجتمعا فكريا خلقيا مستندا الى مبدأ وغاية لا يتحد فيه أفراد البشر على أساس النسل والسلالة بل على عقيدة معينة وضابط خلقى بعينه فكل من آمن بالله ربا ومالكا ورضى بما جاءت به الرسل من الهدى ودين الحق منهجا عمليا لحياته . فقد أصبح جزءا من أجزاء هذا المجتمع وفردا من أفراده ، سواء عليه أكان من بلاد أفريقية أو أوروبا ، أم كان ينتسب الى السلالة السامية أو الآرية ، أم كان

أسود اللون أو أبيضه ، أم كان ينطـق بالسنسكريتية أو العربية . فكل من اشترك فى هذا المجتمع هم سـواسية كأسنان المشط فىحقوقهم ومكانتهم الاجتماعية . فلا يعتبر بينهم شيء من الفوارق النسلية أو القومية أو الطائفية . بل كلهم سواء لا شريف بينهم ولا وضـيع . ولا تزدرى أعينهم أحدا من أبناء جنسهم ولا يستنكف أحـدهم من الاختلاط . بأخيه حذرا من أن يصيبه دنس أو رجس من جراء هذا الاختـلاط . وكذلك لا توجـد بينهم العقبات والحواجز فى شـؤون زواجهم وأرحامهم ومجـالستهم ومخالطتهم ومؤاكلتهم . ولا يكون الرجل فيهم شريفا أو وضيعا بسبب سـلالته التى ينتمى اليهـا أو المهنة التى يتعاطاها ، ولا يستبد الرجل فيهم بحقوق له مخصـوصة دون غيره معتزا بنسب أو مستندا الى أسرة وطبقـة فى المجتمع مخصوصة . وكذلك لا يكون الرجل فيهم كريما أو وجيها لاجل أسرته أو ما يملكه من الثروة والمـال . بل انما يكرم الرجل فى هذا المجتمع ويشرف اذا تحـلى

بمكارم الاخلاق وكان أوفر الناس حظا من تقــوى الله وخشيته تعالى .

فهذا مجتمع لا يحد بالحــدود النسلية واللونيــة ولا بالحدود الجغــرافية ؟ بل من الممكن أن يتجــاوزها بحــذافيرها ويعم وينتشر فى أقطار الارض وأرجائهــا جميعا ، حتى تقوم على أساسه مؤاخاة بشرية عالمية . أما المجتمعات النسلية والوطنية فلا يمكن الاشتراك فيها الا للذين ينتمون الى سلالة مخصوصة أو وطن مخصــوص ويوصد بابها على من دونها من أبناء البشر . الا أن هذا المجتمع الفكرى والخلقى مفتوح بابه لكل من يؤمن بعقيدة واحدة وضابط خلقى معين يشارك فيه ويتمتع من الحقوق بما يتمتع به غيره سواء بسواء . ثم ان الذين لا يؤمنون بعقيدته وضابطه فانه وان كان لا ينظــر اليهم كأبنــائه والمنضوين تحت لوائه الا أن يشملهم بعواطف الانسانية العامة ولا يقطع عنهم حقوقهم الفطــرية البشرية . ومن

الظاهر البين الذى لا خفاء فيه ان الشقيقين اذا اختلفا فى الفكرة والعقيدة وسارا فى طريقين مختلفين فى مضمار الحياة • لا يكون من معناه أنه قد انفصمت عروة النسب بينهما • وكذلك اذا انقسمت السلالة الانسانية أو انقسم سكان قطر من الاقطار الى طائفتين : طائفة تؤمن بهـــذه العقيدة والمبادىء وطائفة لا تؤمن بها • فـــلا ريب أنهم يتفرقون هـــكذا الى م جتمعين مختلفين الا أن الاخـــوة الانسانية لا تزال مشتركة بينهما فعلى أســـاس هـــذه الانسانية المشتركة قد سلم المجتمع الاسلامى بقصارى ما يمكن تصـــوره من الحقـــوق البشرية وأعطاها سائر المجتمعات غير الاسلامية •

فاذا أدركت دعائم نظام الاســـلام الاجتماعى • فتعال نبحث ونتبصر فى الاصـــول ومناهـــج العمل التى رسمها الاسلام لمختلف صـــور التعـــاون أو التـــكافل البشرى •

ان أول مؤسسة وأهمها وأخطرها شأنا فى المجتمع البشرى هو البيت ، وهذا ينهض بنيانه ويوحد أفراده بتزاوج الزوجين ، وبهذا التزاوج تخرج الى الوجود سلالة جديدة تتفرع منها أواصر القرابة والرحم وغيرهما من صلات العشيرة ، ولا تزال تمتد هذه الاواصر وتتسع الى أن تبسط جناحها على مجتمع فسيحة جوانبه ثم ان البيت هو المؤسسة التى تدرب فيها كل سلالة أخلاقها وتعدهم لتحمل تبعات التمدن الانسانى العظيمة بغاية من الحب والمواساة والتودد والنصح ، فهذه المؤسسة لا تهيىء الافراد لبقاء التمدن البشرى ونموه فحسب ، بل هى مؤسسة يود أهلها من صميم قلوبهم وأعماق صدورهم أن يخلفهم من هو خير منهم وأصلح شأنا وأقوم سبيلا ، فالحقيقة التى لاتنكر على هذا الوجه أن البيت هو جذر التحدث البشرى وأصله وانه يتوقف على صحة هذا الجذر وقوته صحة التمدن البشرى نفسه وقوته ، ومن ثم ترى أول ما يهتم به الاسلام ويعتنى به من مسائل

الاجتماع انما هو أن يقيم مؤسسة البيت ويقـرها على أصح الاسس وأقومها .

ان الصورة الصحيحة الوحيـدة لمـا بين الرجـل والمرأة من صلة المعاشرة والتزاوج ، فى نظر الاسلام . أن يرضى كل منهما للاضطلاع بما يناط به من تبعات الحياة البيتية حتى يترتب عليها ويقوم على أساسها بيت وعشيرة منزلية .

وان الاسلام لا يرى من الهنات الهينات العـلاقات الخليعة التى تنشأ بين الرجل والمرأة ولا يعدها من قبيل المداعبات الطبعية ولا يعاملها معاملة الرذائل القبيحة بل هى فى نظره مما يأتى على قواعد التمدن البشرى ويهدد بالفناء والانقراض . فهو يحرم مثل هذه العلاقة تحريما باتا ويعدها من الجرائم القانونية ويعين لـكل من يأتيها من أفراد المجتمع عقوبات شـديدة وذلك كى لا يشيع فى المجتمع مثل هذه العلاقة التى تستأصل التمـدن البشرى

وتنسفه نسفا ، وأن يتطهر المجتمع من العوامل والدواعى التى تحمل المرء أو المرأة على اتيان هذه العلاقة الخليعة التى لا تبعـــة تحتها أو يهىء لها الفـــرص أو الاسباب فليست أحكام الحجاب الاسلامى وتحريم اختلاط الرجال بالنساء والحجر على شيوع الغناء والرقـــص والصـــور والفواحش وانتشارها الا لهذا الغـــرض نفســـه ، فان غرضها الاسمى ومقصدها الجوهـــرى هو تقـــوية البيت وصيانته من عوامل الضعف والانحلال . هذا فى جانب . وبجانب آخـــر لا يكتفى الاســـلام بأن يجـــوز العلاقة المشروعة ـــ النكاح ـــ فحسب ، بل يعـــدها من الحسنة والعمل الصالح وعبادة الخالق . ومن أجل ذلك يكره أشد الكراهة أن يتبتل المرء أو المرأة وينقطعا عن الزواج . فهو يحث كل شاب أن يحمل على عاتقيه ما حمله أبواه قبله من أعباء التبعات المدنية اذا بلغت اليه النوبة . وكذلك لا يعد الرهبانية من الحسنات . بل يعدها بدعة شنيعة تناقض فطرة الله كل المناقضة . وأيضا لا ينظر بعين الاستحسان

الى الرسوم والعادات التى تجعل الزواج أصعب عملا وأعسره على المرء • بل يريد أن يجعل الزواج أسهل عمل وأيسره فى المجتمع والزنا والعهر أصعب عمل وأشقه • ولاجل هذا الغرض لم يحرم الاسلام الا الارحام والقرابات المخصوصة وأحل للمرء أن يتزوج بعدها حيث شاء بمن شاء من ذوى الارحام والانساب القريبة أو البعيدة • قد قضى على الفوارق الطائفية وقوض دعائمها تقويضا • وأذن للمسلمين كافة اذنا مشاعا أن يتزاوجوا فى ما بينهم • وأمرهم بتحرى السذاجة والاعتدال فى صداق المرأة وجهازها الى حد يسع تحمله كلا من الفريقين ولا حاجة لابرام عقدة النكاح فى نظر الاسلام الى قاض أو فقيه أو سجل ، بل الحق أن ليست عقدة النكاح فى المجتمع الاسلامى الا وظيفة ساذجة يمكن ابرامها بتراضى الزوجين البالغين بشهادة الاثنين من العدول • الا أنه لا ينبغى أن يتم هذا العقد سرا وخفية بل يجب أن يكون جهرا وعلانية فى القرية أو الحى أو المحلة •

والاسلام قد جعل الرجل قواما على زوجه مشرفا على شؤون البيت ليقرها على أساس متين ونظام حسن. وقد أمر المرأة بطاعة بعلها وخدمته كما أمر الذرية بطاعة الوالدين وخدمتهما . وهو لا يستحسن نظاما للبيت متزعزع الاركان لا مدير له مقوم وليس فيه من يكون مسؤولا عن أخلاق أهل البيت ومعاملاتهم وشؤونهم المختلفة . فاذا كان من المعلوم أنه لا يمكن أن يستقيم نظام لبيت من البيوت الا بالقوام والمشرف على أموره كان رب البيت أجدر وأليق من غيره لهذا المنصب الجليل فى نظر الاسلام . الا أنه ليس من معنى ذلك أن الرجل قد جعله الاسلام راعيا قاهرا على أفراد البيت يسوسهم كيف شاء . وان المرأة فوضت اليه أمة له مملوكة لا مجال لها فى تدبير البيت ولا نفوذ . فالمودة والرحمة هما الاساس الحقيقى للعشرة البيتية فى الاسلام . فاذا كان على المرأة أن تطيع بعلها . فكذلك يجب على البعل — على حد سواء — أن يستعمل نفوذه فى ما يعود على الاسرة بالفلاح

والسعادة والهناء ولا يستعمله فى الجـور والعـدوان . ولا يريد الاسلام أن يبقى على الصلة الزوجية الا ما دامت فيها حلاوة المودة والرحمة أو امكان المعاشرة بالمعـروف على الاقل . واذا لم تبق هذه المعـاشرة ممكنة ، فهناك يخير الاسلام المرء أن يطلق زوجه والمرأة أن تخالع بعلها، وكذلك يخير المحكمة الاسلامية أن تفسخ النكاح اذا انقلب وبالا مكان الرحمة .

وأقرب دائرة تجدها بعد دائرة البيت الضيقة هى دائرة الاقرباء وذوى الارحام . والاسلام يريد أن يرى الذين يمت بعضهم الى بعض بأواصر الابوة والاخوة أو المصاهرة متعاونين متواسين متضـامنين فى ما بينهم . وقد أمر الله تعالى عز وجل فى غير موضع من كتابه العزيز بالبر والاحسان الى ذوى القـربى والعشيرة والتعطف عليهم ، وكذلك قد تكرر فى الحـديث ذكر صـلة الرحم وكونها من أعظم الحسنات مثوبة عنـد الله . فشر الناس وأبغضهم فى نظر الاسلام رجل يعامل أقرباءه وعشيرته

بالنكران واللوم وسوء الخلق ، ولكن حذار أن يذهب بك سوء الفهم الى أن ميل الرجل الى أقربائه وتعصبه لهم فى المعروف وغير المعروف عمل صالح يقره الاسلام ، كلا ، بل الحقيقة أن انتصار المرء لقبيلته وتعصبه لباطلها بازاء الحق يعده الاسلام من باب الحمية الجاهلية ، وكذلك اذا أخذ رجل من موظفى الحكومة يقوم بقضاء حاجات أقاربه بنفقات الامة أو أصبح يجنح اليهم ويقضى لهم على غيرهممن غير حق ولا برهان ، فذلك أيضا ليس فى شىء من العدل الاسلامى ، بل انما هو مما أوحاه الشيطان اليه ووسوس به فى نفسه • أما صلة الرحم التى يأمر بها الاسلام فمن شروطها الاولية أن يكون مصدرها الرجل البارنفسه وأن يكون فى ضمن دائرة الحق والعدل •

ثم أقرب آصرةبعدآصرة القرابة هى آصرة الجوار• فالجيران كما يقول الاسلام ثلاثة : الجار ذو القربى والجار الجنب أى الاجنبى والصاحب بالجنب ، وهو الذى صحبك اما رفيقا فى سفر أو شريكا فى حرفة أو قاعدا الى

جنبك فى مجلس أو مسجد فكل أولئك يستحقون من الاحسان والبر والعطف أكثر من غيرهم . عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : « ما زال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه »(١) .

وعن أبى شريح رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » قيل : من يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يأمن جاره بوائقة »(١) .

وروى عن النبى ﷺ : « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع »(٢) .

قيل للنبى ﷺ : يا رسول الله ! ان فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتصدق ، وتؤذى جيرانها بلسانها

(١) رواه الاربعة (التاج الجامع للاصول ، كتاب البر والاخلاق جـ٥ ص ١٥) .
(١) رواه البخارىو مسلم ، ولفظ مسلم « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقة » (التاج الجامع للاصول ، كتاب البر والاخلاق جـ٥ ص ١٥) .
(٢) رواه البخارى فى كتاب الاداب عن ابن الزبير .

فقال رسول الله ﷺ : « لا خير فيها ، هى من (أهـل) النار » . قالوا : وفلانة تصلى المكتوبة وتصدق بأثوار (من الاقط) ولا تؤذى أحدا فقال رسول الله ﷺ : هى من أهل الجنة »(٣) .

قال النبى ﷺ : « يا أبا ذر اذا طبخت مرقة فأكثر ماء المرقة وتعاهد جيرانك أو اقسم فى جيرانك »(٤) .

فجملة القول أن الاسلام يريد أن يؤلف بين الذين يمتون فى ما بينهم بصلات الجوار ويجعلهم متضامنين فى كل ما يحل بهم من الافراح والاتراح ، ويقيم بينهم أواصر الثقة والاعتماد حتى يأمن كل واحد منهم أخاه على نفسه وماله وعرضه فهذه هى العشرة الاسلامية وآدابها . أما العشرة التى نجد فيها جارين متلاصقين لا يحول بينهما

---

(٣) رواه البخـارى فى كتاب الاداب عن أبى هـريرة . والزيادة الاولى بين القوسين( ) هى فى الادب المفرد للبخارى أما الزيادة الثانية فهى فى مسند الامام أحمد .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الاداب .

الا جدار واحد غير متعارفين على كر الزمان ومر الايام. والتى لا نجد فيها بين أهل محلة واحدة شيئا من التواد والمواساة والثقة . فـلا يمكن أن تعـد من باب العشرة الاسلامية فى شىء .

ثم تواجهنا بعدهذه الروابط المتقاربة دائرة العلاقات الوسيعة التى تخيم على الجماعة المسلمة كافة . فاليـك قبسا من الاصول والقواعـد التى يقيم عليها الاسـلام حياتنا الاجتماعية فى هذه الدائرة الواسعة .

١ ــ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان (المائدة : ١٠) .

٢ ــ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر (آل عمران : ١٠)

٣ ــ اياكم والظن فالظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسـدوا ولا تباغضـوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا[1] .

---

(١) الحديث صحيح مسلم : باب تحريم الظن والتجسس.

٤ ـــ من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان[٢] .

٥ ـــ من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج من الاسلام[٣] .

٦ ـــ من نصر قومه على غير الحـــق فهـــو كالبعير الذى روى فهو ينزع بذنبه[٤] .

٧ ـــ لا يؤمن أحـــدكم حتى يحب لاخيـــه ما يحب لنفسه[٥] .

---

(٢) مشكاة المصابيح : باب الايمان .
(٣) البيهقى : مشكاة المصابيح : باب الظلم .
(٤) رواه أبو داود .
(٥) الحديث رواه الخمسة الا أبا داود عن أنس بن مالك (كتاج التاج الجامع للاصول ، باب أوصاف الايمان الـــكامل ص ١٦) .

النظام الاقتصـــادى

ان الاسلام أقام حدودا ووضع أصولا ليقر شؤون الانسان الاقتصادية على قواعد الحق والصدق والعدالة والامانة وقضى أن لا يسير نظامها ولا يعمـــل عمـــله من دوران الثروة واكتسابها وانفاقها الا فى ضمن هذه الحدود المرسومة ولا يحيد عنها أبدا • أما طرق استثمار الثروة وصور دورانها وتداولها ، فلا يهتم بها الاســـلام أدنى اهتمام ، بل يدعها تحدث وتتجـــدد بكر الزمان ومـــرور الايام ، فانها مما يساير المدنية الناشـــئة المتحـــولة يوما فيوما ويتشكل ويتعين حسب أحوال الناس وبيئاتهم وما يمسهم من الحاجات فى مختلف مراحل الحياة • وانما يريد الاسلام أن لا ترفض هذه الاصول ولا تنتهك هذه الحدود وان انقلبت شؤون الانسان الاقتصادية وصيغت فى قوالب شتى ، بل يجب أن تراعى وتحترم فى كل ما تختاره شؤون الانسان الاقتصادية من الاوضاع والاشكال المختلفة فى الازمان والادوار •

ولم يخلق الله الارض وما فيها من شىء الا للنوع البشرى ، كما يراه الاسلام • فمن حق كل انســان من حيث انه انسان منذ وجوده أن يحــاول اكتســاب رزقه والتماس معاشه من مائدة النعم الالهية المبسوطــة بين يديه فى الارض • فهذا الحــق يشترك فيــه أبناء البشر اشتراكا سويا كأسنان المشط ، لا يحرم أحد التمتع بذلك الحق الفطرى ولا يفضل فيه بعضهم على بعــض • ان الشريعة الاسلامية لا يحل فيها أن يقيد بعض الافراد أو البيوتات أو الطبقات حتى لا يكون من حقهم الانتفــاع ببعض وسائل الرزق ويوصد دونهم باب بعض الحــرف والمهن • وكذلك لا يجوز فيها بحكم القانون أن يقرر من الفوارق والامتيازات ما يجعل بعض الطبقات أوالسلالات أو البيوتات مسندة ببعض وسائل الرزق وطرق المعاش دون عامة الناس • فجميع أبناء البشر يستوون فى حــق المحاولة لنيل نصيبهم مما بسط الله على أرضه من وسائل

الرزق وطرق المعاش • فينبغى أن تتاح لكل واحـــد منهم فرص هذه المحاولة أيا كان من بنى آدم •

وكل نعمة لابد فى ايجادها واصلاح شأنها لجهـــد الانسان وكفاءته ، يباح لهم جميعـــا أن يتمتعـــوا بهـــا وينتفعون منها بقـــدر حاجتهم • فماء الانهـــار والعيون منها بقدر حاجتهم • فماء الانهار والعيون وحطب الغابة وأثمار الاشجار الثابتة فى أرض غير مملوكة والاعشـــاب وسائر نبات الارض والماء والهواء ووحوش الصـــحراء والمعادن العامة على ظهر الارض وغيرها من هذا القبيل لا يجوز الاستبداد بها ولا احتكارها ولا أن يغلق بابهـــا على خلق الله حتى لا يتمكنوا من الانتفاع بها الا اذا دفعوا عليها الاجرة • غير أن الذين يريدون أن يستغلوا قـــدرا عظيما من هذه الاشياء لاغراض تجارية يجـــوز للحكومة أن تضع عليهم الضرائب •

وأما ما خلق الله فى الارض من المتاع لمصلحة عامة

الناس وانتفاعهم فلا يجـوز أن يهمـل ويعطل ، ولا بد لصاحبه من أمرين : اما أن ينتفع به نفسه ، واما أن يذره ليتمتع به غيره فيحتم القانون الاسلامى ، بناء على ذلك، أنه لا يجوز لشخص أن يعطل أرضه فوق ثلاث سنوات ، وأنه اذا لم يعمرها بالبناء أو الزراعة أو غيرها ، فقد صار حكمها بعد ثلاث سنوات حكم الارض المـوات التى اذا انتفع بها غير صاحبها وأحياها • لا يحـل لصـاحبها أن يحاكمه الى المحكمة ، بل الحكومة الاسلامية تكون بالخيار التام فى مثل تلك الحال أن تقطع هذه الارض لمن شاءت دون صاحبها الحقيقى •

ومن كان حائزا لحقوق الملك بالطرق الشرعية المباحة فى الدنيا ، فلا ريب أن حقوقه هـذه جـديرة بالحرمة والمحافظة عليها فى كل حال أما كون هـذا الملك مستوفيا لشروط الصـحة فى نظـر الشرع ، فيمكن البحث فى ذلك والتحقيق فى شـأنه فالذى لا يكون منه مستوفيا لشروط الصحة فى نظر الشرع ، فينبغى أن لا ينتزع من أصحابه،

وأما الذى يقره الشرع والقانون من حقوق الملك فلا مجال لمجلس من المجالس التشريعية ولا لحكومة من الحكومات أن تسلبها وتغضبها أصحابها أو تزيد وتنقص فى شيء من حقوقهم الشرعية • ولا يجوز أبدا أنيقوم فى أرض الله باسم الصالح العام نظام يريد القضاء على حقوق أقرتها الشريعة الاسلامية فكما أن التفريط فى جنب القيود التى قيدت بها الشريعة الاسلامية حقوق الفرد فى الملك مراعاة لصلحة الجميع يعد ظلما وافتئاتا على الحق • كذلك الافراط بالزيادة فى تلك القيود أيضا لا يقل عن ذلك ظلما وعدوانا • ومن واجبات الحكومة الاسلامية أن تحترم حقوق الافراد الشرعية وتحافظ عليها منهم ما أوجبت عليهم الشريعة من الحقوق الجماعية •

ان الله تبارك وتعالى خلق الخلق ولم يجعلهم سواسية فى تقسيم النعم والايادى بينهم بل فضل بعضهم على بعض بحكمته ومشيئته فهذا التباين بين العباد ظاهر بين فى حسنهم وجمالهم وجودة أصواتهم

وقواهم الجسمية وكفاءتهم العقلية والمباءةالتى ولدوا فيها الى غير ذلك من هذا القبيل • فهــكذا أمر الرزق بعينه • فالفطرة التى فطر الله عليها النــاس تقتضى بطبيعتها أن يكون التفاوت والتباين فى رزق العباد كشأنه فى مواهبها الاخرى • فكل مشروع يختار ويدبر أمره لايجاد المساواة الاقتصادية المدعاة بين العباد من أساسه حسب ما يراه الاسلام • لان الاسلام لا يقول بالمساواة فى الرزق نفسه• وانما يقول بها فى فرص الجد والسعى فى اكتساب المعاش والتماس الرزق والغاية التى يقصدها الاسلام أن لا يبقى فى المجتمع البشرى حواجز وعقبــات قانونية أو تقليدية تعوق الانسان وتقعده عن بذل جهده واستطاعته فى سبيل اكتساب الرزق حسب ما أولاه الله من القوى والمواهب ، كما يريد أن تنعدم عنه الامتيازات والفوارق التى تضمن لبعض الطبقات أو السلالات أو البيــوتات ســعادتها المتوارثة وتحوطها بسياج من التحفظ القانونى • فهذان الطريقان يحولان التباين الفطرى والفوارق الطبيعية قهرا

الى تمايز مدعى وفروق غير فطرية . فيأباهما الاسـلام ويريد أن يقضى عليهما ويقرر نظام المجتمع الاقتصادى على منهج فطرى مفتحة فيه أبواب السعى والجـد لـكل واحد من أفراد المجتمـع الذين يريدون أن يسـووا بين العباد حتى فى وسائل السعى ونتائجه اكراها وقهـرا ، لا يعاضدهم الاسلام بل يخالفهم كل المخـالفة ، فانهم يريدون أن يحولوا التباين الفطـرى الى المسـاواة غير الفطرية وأقرب نظام الى الفطرة هو الذى يتسنى فيـه لكل فرد من أفراد البشر أن يبدأ سيره فى حلبة المعاش من المقام والمحل الذى أعده الله له والحالة التى فطـره عليها الخالق تعالى . فمن ساعدته الاقدار — مثلا — بأن يملك سيارة ، فله أن يسير على سيارته ، ومن لم يكن عنده الا رجلاه ، يسير ماشيا على رجليه ، ومن كان برجليه أذى من العرج ونحوه ، يسير بعرجه . فلا يكون قانون المجتمع ضامنا لصاحب السيارة حقه الدائم الثابت فى سيارته الى انتهاء السير ومانعا للاعرج أن يحصـل على السيارة فى

مرحلة من مراحل سيره • وكذلك لا ينبغى لقانون المجتمع أن يقضى بأن يبتدىء سير الجميع — صاحب السيارة والراجل والاعرج — من مقام واحد وحالة واحدة وأن يشد بعضهم الى بعض الى انتهاء السير من غير انفكاك ولا انفصال • لا يجوز هذا أبدا ، وانما القانون الوسط العادل ما يبقى فيه ممكنا لكل من بدأ سيره بالعرج أن يحصل خلال سيره على السيارة ان قدر على ذلك بجهوده وكفاءته الذاتية ، من غير أن يكترث فى هذا المقام لمن بدأ سيره بالسيارة وأضاعها خلال السير بغباوته وعدم كفاءته ، فأصبح عاجزا لا يسير الا سير الاعرج •

هذا ، ولا يكتفى الاسلام بأن تكون المسابقة الاقتصادية فى الهيئة الاجتماعية عادلة مفتحا بابها لكل واحد من أفراد البشر ، بل يقتضى مع ذلك أن يكون المتسابقون فى هذه الحلبة متراحمين متواسين متعاونين ولا يكونوا غلاظا شدادا لا يواسى أحد منهم صاحبه

بالجنب . فالاسلام يريد بجانب ، أن يرســخ فى أذهان الناس بتعاليمه الخلقية فكرة التعاون والتكافل حتى يكون كل مبرز متقدم منهم سندا وظهــرا لاخيه المتخلــف . وبجانب آخر يقتضى بأن لا يخلو المجتمع أبدا من مؤسسة ثابتة تضمن اعانة العجزة والمستضعفين الذين لا يهتدون لاكتساب المعاش سبيلا ، حتى ينال كل من لم يستطع أن يضرب بسهمه فى هــذه المسابقة الاقتصــادية نصيبه من هذه المؤسسة . والذين جار عليهم الزمن وأقعــدهم عن استمرار سيرهم ، فمن واجبات هذه المؤسسة أن تؤهلهم للمضى فى سيرهم . ومن كان به حاجة الى عون ومساعدة النزول فى ميدان الجد والكفاح ، يجــد سؤله من هــذه المؤسسة ويبلغ ما يتمناه من المساعدة والمعونة . ولاجل ذلك كتبت الشريعة الاسلامية وقررت بحكم القانون أن يؤخذ فى كل سنة ٢½٪ من ثروة البلاد المدخرة كافة وكذلك من مجموع مال التجارة زكاة مفروضة ، وأن يؤخذ ١٠٪ أو ٥٪ من كل ما أغلته الاراضى العشرية من حبوب وثمار .

وكذلك أوجبت الشريعة ٢٠ ٪ من حاصلات بعض المعادن وأن تؤخذ أنصبة مفروضة من الانعام والماشية على حسب اختلاف عددها وأيضا فــرضت الشريعــة أن ينفق كل ما يحصل بهذه الطرق من المــال فى اسـعاف الفقــراء والمساكين واليتامى والمعوزين وذوى الحاجة فهذا تأمين اجتماعى يستحيل معه أن يوجد فى المجتمع الاســلامى شخص يعوزه شىء من حاجات الحياة اللازمة . وكذلك من المستحيل عندئذ أن يضطر رجل عامل يكسب رزقه بعرق جبينه خشية الاملاق الى أن يسلم بكل ما عــرض عليه الملاكون وأصحاب المصانع من شروط الاستجارة الفادحة وعلى غرار ذلك لا يمكن أن تنحط قوة فــرد من أفــراد المجتمــع عن ذلك المستوى الادنى الذى لا بد له منــه للمساهمة فى الكفاح الاقتصادى .

ومن نال شيئا من خزانة ربه رأسا وأصلحه وجعله قابلا للانتفاع والاستعمال بجده واجتهاده ، فهو مالــكه

وصاحبه ومثال ذلك أرض موات لا يقوم لاحد حق الملك فيها • فاذا أخذها المرء فى حوزته واصلح شأنها واستعملها فى وجه نافع مثمر ، لا يجوز عزله منها واستردادها من يده • فهكذا ابتدأت جميع حقوق الملك فى الارض ، على حسب ما يراه الاسلام فلما استعمر الانسان هذه الارض فى بدء الامر • كان كل شىء على وجهها مباحا عاما لجميع بنى آدم ، فمن حاز شيئا واصلح شأنه وجعله قابلا للانتفاع والاستعمال ، أصبح صاحبه ومالكه ، أى صار من حقه أن يخص استعماله لنفسه دون غيره ويطلب الاجرة ممن أراد استعماله والانتفاع به • فهذا هو الاساس الفطرى الذى يقوم عليه بناء جميع شؤون الانسان الاقتصادية ، فمن المعقول ، اذن ، أن يبقى هذا الاساس ثابتا مأمونا به محترما •

ويريد الاسلام أن يقيم الفرد والجماعة على قسطاس مستقيم ويجمع بينهما على أساس التعادل

الكامل ، بحيث يبقى حقوق الفرد — من حيث هو فرد — وحريته مصونة لا تضر بالمجتمع بل تكون نافعة قطعا . فلا يروق فى نظره نظام سياسى أو اقتصادى يهضم حقوق الفرد لمصلحة المجتمع ولا يذر له من الحـــرية الشخصية مالا بد منه لتكميل مواهبه الفطرية ومقوماته الفردية . والنتيجة اللازمة من اتخاذ جميع مرافق الحياة ووسائل الانتاج ملكا مشاعا أن يقيد جميع أفـــراد البلد بحبائل الضابطة الجماعية من غير انفكاك ولا تحرك . فالظاهـــر أنه من الصعب بل من المستحيل فى مثل تلك الحال بقـــاء فرديتهم ونموها وارتقاؤها ومن المعلوم أن المحافظة على الفردية تحتاج الى الحرية الاقتصادية الى حد عظيم كما تحتاج الى الحرية السياســـية والاجتماعيـــة . وما دمنا لا نريد القضاء على المروءة البشرية ، فلا بد أن يبقى فى مجتمعنا مجال لكل عبد من عباد الله أن يلتمس معاشه حرا طليقا ويرقى قواه الذهنية والخلقيـــة حسب اتجـــاهاته ورغباته . والحق أن الرزق الرسمى المحدود الذى يمتلك

مفاتيحه الاجانب لا تطيب به النفس أبدا ، وان توفر واتسع قدره ونطاقه ، فان شبع البطن وسمن البدن لايمكن أن يتلافيا ما يسببه هذا الرزق من التلكؤ والاحجام عن الاقدام والمغامرة . فكما أنالاسلام يكره مثل هذا النظام . وكذلك لا ينظر بعين الاستحسان الى ذلك النظام الاجتماعى الذى يطلق العنان لافراد المجتمع فى الدوائر الاجتماعية والاقتصادية ويترك حبلهم على غاربهم يفعلون ويقترفون ما يشاؤون وتشاء أهواؤهم ، حتى يعودوا شرا على الجماعة وضررا فادحا بمصالحها . والطريق الوسط الذى اختاره الاسلام بين هذين الجانبين المتناقضين — جانبى الافراط والتفريط — أن يقيد الفرد أولا بجملة من الحدود والتكاليف حفظا لمصلحة الجماعة ، ثم يخلى بينه وبين شؤونه الفردية يعالجها كيف ما شاء فى ضمن هذه الحدود .وليس المقام مقام تفصيل لهذه الحدود والتكاليف، الا أننى ذاكر لكم بعض نواحيها المهمة ، قاصدا الايجاز والاجمال .

فلنبدأ باكتساب المعاش والتماس مــوارد الرزق أولا ، فقد اهتم الاسلام بوسائل اكتساب المعاش وأمعن فى التفريق بين الحلال والحرام امعانا لم يسبق اليه قانون من قوانين العالم فهو يحرم كل عمل يضر به المرء غيره أو يجلب بسببه ضررا خلقيا أو ماديا على المجتمع بأسره • فقد حرمت الشريعة الاسلامية تحريما باتا الخمر وتعاطى المسكرات وبيعها وشراءها والبغاء ومهنة الرقص والغناء والميسر والقمار وأوراق النصيب والربا والغش وبيــع الغرر والطرق التجارية التى لا تضمن النفع اليقينى الا لاحد الفريقين دون الثانى وكذلك الاحتكار وما الى ذلك من الصفقات التى تعود على المجتمــع بنوع من أنواع الضرر • وانك اذا نظرت فى قانون الاسلام الاقتصادى من هذه الوجهة وتبصرت فيه ، عثرت على فهرس مسهب طويل الذيل لطرق المعاش المحرمة ، وانك لتجد من بينها عين الطرق الذميمة التى يستخدمها الناس اليوم فى نظام الرأسمالية ويصيرون من المتمولين الذين يشـــار اليهم

بالبنان فالاسلام يوصد أبواب جميع هذه الطرق بحكم القانون ويحتم على المرء أن لا يكسب المـال والثروة الا بالطرق التى يسدى بها خدمة حقيقية نافعة لمن سواه من بنى آدم • فيحصل بذلك على أجرته بالعدل والنصفة والقسط •

والاموال المكتسبة بالطرق المباحة يسلم فيها الاسلام للمرء حقوق الملكية • غير أن هذه الحقوق أيضا منحصرة فى دائرة من الحدود والقيود • وبيان ذلك أنه يلزم الرجل ان لا ينفق ما اكتسبه من الاموال بالطرق المشروعةالا فى الطرق المشروعة فقد وضع لهذا الغرض حدودا للانفاق بحيث يستطيع المرء أن يعيش عيشة طيبة طاهرة ، الا أنه لا يسعه أن يبذل أمواله فى طرق أبواب المجون والخلاعة ولا ان يصرفها فى اظهار بذخه وترفه حتى يعلو بنفسه فوق بنى جلدته وينظر اليه الناس من حوله نظرهم الى الجبابرة المستكبرين • فهناك صور للاسراف فى بذل المـال حرمها القانون الاسلامى جهرا وتصريحا

وصور أخرى • وان لم يحرمها تصريحا الا أنه جعل الخيار فيها الحكومة الاسلامية أن تأخذ بأيدى الناس بحكم القانون وتمنعهم من التصرف الشطط فى أموالهم •

والذى فضل عند الرجل من المال بعد ما أنفق فى المصارف المباحة الموزونة ، فهو بالخيار اما أن يجمعه ويدخره ، واما أن يقلبه فى وجوه الكسب والتجارة بقصد الاستزادة والاستكثار الا أن الاسلام وضع له حدودا وقيودا فى كلتا الحالين • فان أراد الجمع ، فعليه أن يؤدى فى كل سنة زكاة من ماله عن النصاب • وان أراد التقليب فلا يجوز له الا أن يقلبه فى الكسب الحلال والتجارة المباحة • ثم هذه التجارة اما أن يقوم بها المرء بنفسه ، واما أن يشارك فيها وفى نفعها وخسرانها أحدا غيره اذا سلم اليه الاموال والبضاعة على سبيل الشركة سواء أكانت نقودا أو أرضا أو أدوات • فان أصبح المرء فى ضمن هذه الحدود والقيود بعد مدة من الزمن ذا ثروة

متراكمة ، فلا جناح عليه فى نظر الاسلام ، بل انما ذلك انعام من الله أنعمبه على عبده وأكرمه به • ولكن مع كل ذلك يشترط عليه الاسلام شرطين ضنا بكيانها • الاول أن يؤدى كل عام زكاة أمواله وما أوجبه الله من العشر على الحاصلات الزراعية • والثانى أن الذين يعاقــدهم على المشاركة أو الاستيجار فى التجارة أو الصناعة أو الزراعة لابد له أن يعاملهم بالحسنى وينصفهم فى معاملته لهم • وان لم يعاملهم بالعدل و النصفة أجبرته الحكومة الاسلامية وقهرته على ذلك قهرا •

ثم ان الثروة التى قد جمعت ضمن هذه الحــدود المباحة ، لا يرضى بها الاسلام أن تبقى مكنوزة الى أمد بعيد ، بل يقضى بحكم القانون ــ قانون الارث ــ بتوزيعها وبثها فى كل جيل بعد جيل • فاتجاه القانون الاسلامى فى هذه المسألة مختلف كل الاختلاف عن اتجاهات القوانين الاخرى فى الدنيا • فما ترمى اليه قوانين العالم الاخرى ان الثروة التى اجتمعت مرة من حقها أن تبقى مجتمعة

على تعاقب الاجيال • وبعكس ذلك جاء الاسلام بقانون جامع يقضى بأن المـــال الذى قد جمعه رجل فى حياته ، يوزع بين عشيرته الاقربين بعد وفاته على الفور • فان لم يكن له أحد من عشيرته الاقربين ، ورثة ذوو الارحام والذين يمتـــون اليه بشىء من صلة النسب ، على حسب فروضـــهم وأنصبتهم • وان لم يكن له أحـــد من ذووى الارحام أو يمت اليه بشىء من صلة النسب ، يســـتحق تركته بيت مال المسلمين أو المجتمع الاسلامى بأجمعـــه فهذا القـــانون ــ قانون الارث ــ لا يسمـــح لشىء من الاموال المتجمعة أو نظام من النظم الاقطاعية أن يبقى ثابتا دائما • بل الحق انه يقضى على كل فساد قد يتولد من كنز الثروة مع تلك القيود والحدود التى تقدم ذكرها فى ما سلف •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

النظام الروحانى

ما هو نظام الاسلام فى ما بين العبد وربه ؟ وما هى العلاقة بينه وبين سائر النظم فى الحياة ؟.. هذه مسألة لابد لنا لفهمها وادراك معناها أن نكون على خبرة تامـــة بالفرق بين تصور العلاقه بين العبد وربه فى الاســـلام وبين تصورها فى سائر الاديان والنظم الفلسفية الاخرى. وذلك أن المرء اذا لم يكن على بصيرة من هذا الفرق وأخذ يبحث فى هذا الباب ، فكثيرا ما يمر بخاطره ويتطرق الى فكرته — بقصد وبغير قصـــد — كثير من التصـــورات والاخيلة التى لصقت فى معظم الاحوال بما يسمى اليوم من الامور الروحانية . فهناك يلتبس عليه الامر ويتعذر عليه أن يعلم من أى نوع هذا النظام الروحانى الغـــريب الذى يعدو نفوذه دائرة الروح المألوفة الى دائرة المـــادة والجسد ويتدخل فى شؤونها ، بل يريد الاســـتيلاء عليها والتصرف فى شؤونها .

والفكرة التى ما زالت مسيطرة فى حقول الفلسفة والديانات ان الروح والجسد نقيضان لا يجتمعان معا ، فهذا فى واد وذاك فى واد ، والذى يقتضيه هذا ويستدعيه، غير ما يستدعيه ذاك ويتطلبه . فمن المستحيل اذن رقيهما وازدهارهما جنبا بجنب فالجسد والعالم المـادى سجن للروح . والعلائق الدنيوية والانغماس فى لذائذها ورغباتها هى الاصفاد والاغلال التى تقيد بهاروح البشرية وكذلك الامور الدنيوية وطرق الكسب والمعاش فى الدنيـا هى الحواجز والعقبات التى تقوم فى وجه الروح ، وتعوقها على التحليق فى الرقى والتقدم .

فكان من النتيجة اللازمة لهذه الفكرة أن تبددت طرق الروحانية والمادية وتفرقت بهما السبل والمناهج . فالذين آثروا المـادة وضربوا بسهمهم فى الشـؤون الدنيـوية بئسوا فى أول خطواتهم من مسايرة الروحانية ومجاراتها اياهم فى هذا المضمار ، فانغمسوا فى عبودية المـادة كل

الانغماس وانسلخت مجتمعاتهم ومدنيتهم وسياستهم ومعيشتهم وسائر أركان حياتهم الدنيوية من الروحانية وتجردت من معالمها حتى امتلأت الارض جورا وعدوانا .

والذين آثروا الروحانية وتطلبوها نشدوا لرقى أرواحهم طرقا ومناهج تجعلهم على الحياد عن الشؤون الدنيوية . وذلك انه كان من المستحيل فى نظرهم أن يوجد لارتقاء الروح طريق يمر من بين الحياة الدنيا وشؤونها الخلابة المتشعبة ، وأنهم لم يروا بدا فى سبيل ترقية الروح والنهوض بشأنها أن يهملوا أمر الجسد ويتهاونوا فى العناية به . ومن أجل ذلك تراهم قد اخترعوا رياضات بدنية شاقة قضت على النفس والانسانية ورغباتها وتركت الجسد كأنه ليس الا جثة هامدة لا شعور بها ولا حراك. ومن ثم رأوا شعاب الجبال وزوايا الصحارى والكهوف والمغارات هى أوفق الاماكن وأدناها للتربية الروحية فلاذوا بالكهوف والجبال وانزووا اليها نافرين من ضوضاء المعيشة المدنية وأشفقوا على أنفسهم أن تقطع عليهم

تبتلهم وانقطاعهم الى الله فكلما ازدادوا تفكيرا وتأملا ، لم يروا سبيلا الى نمو الروح وازدهارها الا أن يتنكبوا عن الدنيا ويتجردوا من علائقها وأن يقطعوا عن أنفسهم جميع الصلات والاواصر التى تربطهم بشىء من العـالم المـادى .

فالنبوغ من الوجهة الدنيوية والبلوغ الى أقصى حدود الكمال فى مضمارها أصبح معناه أن يكون لرجل متمتعا باللذائذ المادية والنعم الظاهرة الملموسة المزخرفة. وأصبحت غايته أن يتحول الانسان طائرا جميلا أو سمكا بديعا أو حصانا نبيلا أو ذئبا مفترسا بارعا فى الفتك والضراوة . هذا من جانب وبجانب آخر أصبح معنى الكمال والنبوغ من الوجهة الروحية أن يمتلك الانسان جملة من القوى الغريبة التى تخرج عن دائرة الفطرة البشرية وتسمو عليها وأصبحت غايته أن يتحول الانسان آلة من المذياع أو مجهرا لطيفا أو تصبح نظراته وكلماته مستشفى كامل الادوات .

والذى يراه الاسلام فى هذا الباب مختلف عما تراه النظم الدينية والفلسفية الاخرى فى العالم • فهو يقول بأن الروح البشرية قــد جعلهــا الله خليفة له فى الارض وفوض اليها جملة صالحة من حقوق التصرف والواجبات والتبعات ، وأنعم عليها لاداء كل ذلك جسدا من أحسن الاجساد هيئة وتقويما فالحــق أن الروح لم تؤت هــذا الجسد الا لان تستخدمه فى ما وهب الله لها من التصرف ولان تؤدى به ما عليهــا من الواجبات • فالجســد ليس بسجن للروح ، بل هو معمل لها • فان كانت هذه الروح قدر لها شيء من النمو والرقى ، فانما يمكن تحققه باظهار مواهبها ، استعدادها الفطرى باستخدام آلات هذا المعمل وقواه ثم ليست هذه بدار للألم أو تعذيب للنفس قد ارتطمت فى أوحالها الروح بسبب من الاسباب ، بل الامر أنها ميدان للعمل ومضمار للسعى والكفاح والجد قد بعث الله الروح البشرية اليه لتقوم بواجبها فيه • ولهذا قــد خولها أن تتصرف فى كثير من الاشياء المولودة فى هــذه

الدنيا • وكذلك خلق معها جم غفير من البشر ليقومـــوا جميعا بواجبات الخلافة هذه ويضطلعوا بأعبائها • وكذلك برزت لها الى عالم الوجود شعب مختلفة من الحضـــارة والاجتماع والاقتصاد والسياسة وما اليها • وذلك بمـــا اقتضته الفطرة البشرية فى افتقارها اليها • فما دام الرقى الروحى والنمو المعنوى ميسورا فى هذه الدنيا ، فليست سبيله أن يعرض المرء عن هذا المضمار ويقبع فى ناحية من النواحى • بل انما سبيله أن يظهر كفاءته ومواهبه الفطرية بالعمل فيها والجد والكدح فى نطاقها • فكأن هــذه الدنيا موضع لامتحـــان المرء واختباره ، وأن كل ركن من أركان الحياة وكل شعبة من شعبها سؤال من أسئلة هذا الامتحان فالبيت والمحلة والسوق والادارة والمعمـــل والحـــانوت والمدرسة والمحكمة ومحـــل الشرط والمعســـكر ومجلس النواب ومؤتمر الصلح وساحة الحرب وهلم جـــرا ، كل ذلك أسئلة مختلفة لامتحان العبد فى فنون شتى وعـــلوم متنوعة • فما يكون من مصيره وعاقبـــة أمره اذا لم يهتم

بشيء من هذه الاسئلة أو ترك معظمها من غير أن يجيب عنها بشيء ما ؟ أفلا يكون حظه من الدرجات صفرا ؟ ان احتمال النجاح والارتقاء لا يمكن الا اذا اعتنى المرء بالامتحان واهتم به أيما اهتمام وأكب على الاستعداد للامتحان والجواب عن جميع الاسئلة التى تعرض عليه .

وكذلك لا يرضى الاسلام الرهبانية ويرفضها رفضا، فانه لا يرى السبيل لرقى الانسان الروحانى فى خارج المعيشة المدنية ، بل انما يراها فى داخلها . وليس موضع رقى الروح وازدهارها ونشوئها وارتقائها وهتاءتها وسعادتها وفلاحها فى سواحل الهيئة الاجتماعية . بل انما هو نظرة فى لجج الهيئة الاجتماعية وقعرها . فعلينا أن ننظر الآن ونتبصر فى ما يعرض علينا الاسلام من مقياس لارتقاء الروح وانحطاطها . هذا سؤال قد أضمر جوابه فى تصور الخلافة الذى سلف ذكره آنفا . فالانسان من حيث انه خليفة الله عز وجل فى الدنيا . مسؤول أمام ربه عما كسب واكتسب فى مضمار حياته ، وليس وظيفته فى

الدنيا الا أن يستعمل ما منحه الله وفوض اليه من الحقوق والسلطان والوسائل وفق مرضاة الرب تعـالى وحسب هدايته ومشيئته ، وان يصرف ويصر جميـع مجهـوداته ومساعيه فى اصلاح الارض واصلاح نظام عيشـة أهلها الى حد يريد الله عز وجل أن يرى أرضه مزينة به متحلية بميزاته وحسناته فكلما ازداد الانسان فى القيام بهـذه الخدمة وشعورا بالتبعة ومعرفة بالواجب وطاعـة للرب وانقياد لاوامره وابتغاء لمرضاته •

ازداد تقربا الى الله ودنوا الى رحمته الشـاملة • فهـذا التقرب الى الله عز وجـل هو الرقى الروحانى فى نظـر الاسلام • وبعكس ذلك كلما ازداد الانسان كسلا وتقاعسا عن العمل والجد وجهلا بالتبعة أو كلما ازداد تعنتا وبغيا وعتوا ، ازداد ابتعادا عن الله عز وجل ، فهذا الابتعاد عن الله تبارك وتعالى هو الانحطاط الروحانى ، حسب ما يراه الاسـلام •

فالذى يتبين من هذا التفصيل ان مضمار العمل والجد للرجل المتدين والرجل الدنيوى من الوجهة الاسلامية لا يختلف أصلا بل هما يشتركان فى العمل بميدان واحد وحلبة مشتركة ، بل الحق أن الرجل المتدين يؤدى واجبه فى هذا المضمار بعناية واهتمام لا يبلغهما الرجل الدنيوى أبدا . فانه يضطلع بكل ما يعرض له من تبعات لمختلف الشؤون فى الحياة الدنيا ومراحلها من عشرته البيتية الى اللجنة الدولية العالمية — كما يضطلع بها الرجل الدنيوى . سواء بسواء ، بل يفوقه ويبذه فى ذلك . والذى يفرق بينهما هو الاختلاف فى علاقتهما بالرب تعالى ونوعيتها فلا يعمل هذا الا وهو يشعر أنه مسؤول أمام ربه ، فلا ينبغى ولا يقصد من عمله الا وجه ربه تعالى ورضاه فقط ، أما ذاك فدائما يرى نفسه ، بخلاف ذلك . حرا طليقا غير مسؤول عن أعماله أمام أحد . فلا يعمل عملا الا وفق ما توحى اليه شهواته وميوله النفسية غير مبال بما أمر ربه ونهى عنه . فهذا الاختلاف فى علاقتهما

بخالقهما تعالى هو الذى حول حياة الرجل المتدين المادية بأسرها الى حياة روحانية طيبة • وأن هذا هو الذى ذهب بنور حياة الرجل الدنيوى الروحانية وتركه فى ظلمات ليس بخارج منها •

والان أريد أن أعرض عليكم وأبين لكم كيف يرسم الاسلام طريقا لارتقاء الانسان الروحانى فى لجج الحياة الدنيوية المادية ويفتح فى وجهه أبواب النمو والكمال •

فأول خطوة من خطوات هذا الطريق هى الايمان • وذلك أن يرسخ فى قلب المرء ويتمكن من ذهنه أنه ما من اله ولا مالك ولا حاكم الا الله عز وجل ، وان لا غاية له فى الحياة يقصدها من مجهوداته ومساعيه الا وجه الله ورضاه،وأن لا قانون له فى حياته الا ما أمر به الله وما نهى عنه • فهذه الفكرة ، كلما ازدادت رسوخا وتأصلا فى ذهن المرء ، ازداد اصطباغا بصبغة العقلية الاسلامية وتمكنا من الرقى الروحانى متصاعدا الى أعلى درجاته •

والمرحـــلة الثانية من مـــراحل هـــذا الطريق ، هى « الطاعة » ومعناها أن يتخلى المرء ويتجرد عن استقلاله وحريته الشخصية فى كل ما يقوم به من الافعال والاعمال، ويتحرى فى جميع أعماله طاعة الله الذى يؤمن به ويعتقد أن لا اله الا هو وحده . فهذه الطاعة هى « الاسلام » فى المصطلح القرآنى .

والمرحلةالثالثة من مراحل هذا الطريق هى«التقوى» التى يمكن أن يعبرعنها بالمعرفة بالواجب والشعور بالتبعة. فالتقوى معناها أن لا يأتى العبد من عمل فى ناحيـــة من نواحى حياته الا وهو على يقين من نفسه أنه محـــاسب أمام ربه عن عقائده وأقواله وأفعاله ، وأن ينتهى عن كل ما يجد الله قد نهى عنه ويشمر عن ساقه للقيام بكل ما أمر الله به ، فيقضى أيام حياته مميزا بين الحلال والحـــرام والصـــواب والخطأ والخير والشر ، وذلك بشـــعور تام واختيار كامل من نفسه .

ورابعة الاربع وأعلاها من بين مراحل هذا الطريق « الاحسان » ومعناه أن تندمج وتنضم مشيئة العبد الى مشيئة الرب تعالى ، حتى لا يحب الا ما يحبه الله ولا يبغض الا ما يبغضه الله ، ولا يكتفى بأن يجنب نفسه ويبعدها عن الفواحش والمنكرات التى يريد الله أن يرى أرضه متنزهة عنها ، بل لا يألوا جهدا ولا يدخر وسعا فى استئصال شأفتها واجتثاث شجرتها من الارض ، وأن لا يقتصر على تزيين حياته بالمكارم والمآثر التى يريد الله أن تتحلى بها أرضه فحسب ، بل يبذل كل ما يملكه من القوى ولا يضن بنفسه ونفائسه فى بث خيراتها وتعميم مبراتها فى أرض الله الواسعة . فاذا قدر له أن يتمكن من البلوغ الى الدرجة الرفيعة ، فقد فاز بالتقرب الالهى ، فالاحسان هو أقصى ما يطمح اليه المرء ببصره فى ارتقائه الروحانى .

فهذا هو طريق الارتقاء والازدهار الروحانى فى الاسلام ، وهو لايقف عند الافراد والاشخاص بل يعدوهم الى الجماعات والامم ، فمن الميسور لكل أمة أن

تقطع مراحل الايمان والطاعة والتقـوى وتبلـغ ذروة الاحسان كشأن الفرد بعينه • وكذلك يسع كل مملكة من الممالك أن تكون بنظامها الشامل مؤمنة مسلمـة محـلاة بالتقوى بالغة درجة الاحسان ، بل الحق أن الاسـلام لا يتحقق أمله وغايته المنشودة الا اذا سـارت الامـة بأجمعها على هذا الطريق وتشكلت فى أرض الله مملـكة محلاة بالتقوى والاحسان •

فيجدر بنا الآن أن نختبر ونتبصر فى نظام التربية الروحانية الذى اختاره الاسـلام ورسـم خطته وأقام دعائمه لتنشئته الافراد والمجتمـع وتدريبهم على هـذا الطراز المخصوص من الارتقاء الروحانى • فهذا النظام له أربعة أركان :

أولها الصلاة : فهى تجدد فى ذهن المـرء ذكـر الله الواحد الاحد خمس مـرات فى كل يوم وليلة وترهبه من عذابه وبطشه الشديد وترغبه فى رحمته وتقـربه اليـه

وتعرض عليه أحكامه مرة بعد أخرى وتدربه على طاعته والانقياد لاوامره • ثم ان هذه الصلاة لم تفرض على العباد بصفاتهم الفردية فحسب • بل أوجب الله عليهم أن يؤدوا صلواتهم جماعة •

وثانيها الصوم : وهو يدرب المسلمين أفرادا والمجتمع الاسلامى جماعة على تقوى الله وخشيته تعالى شهرا كاملا فى كل عام •

وثالثها الزكاة : وهى تنشىء فى قلوب المسلمين عواطف الاخاء والمساواة وتروضهم على بذل المال والتعاون فى ما بينهم ومما يدعو الى الاسف أن كثيرا من الناس فى هذا العصر يعبرون عن الزكاة بكلمة الضريبة • والحال أن المعنى الاسمى الذى يوجد فى الزكاة وأراده الشارع لا صلة له أصلا بالمعنى المادى الذى تشتمل عليه الضريبة • فالزكاة لغة النشوء والنماء والازدهار والطهارة والنظافة • والذى يريده الاسلام باستعمال كلمة الزكاة

أن يرسخ فى ذهن المرء أنك ما تنفق نفقة مادية صغيرة أو كبيرة فى سبيل اعانة اخوانك ابتغاء لمرضاة الرب • الا وهى تعود عليك بالثبات والقوة ونماء صفاتك المعنـوية وزكاة أخلاقك العامة •

ورابع الاربعة : « الحج » وهو يجعل من المؤمنين فى مختلف أقطار الارض كتلة متراصة وجمـاعة عالميـة أساسها التوحيد وعبادة الله الواحد الاحد ، وبذلك يؤلف بينهم مؤاخاة شاملة عالمية ويوطد دعائم حـركة عالميـة ما زالت تلبى منذ أقدم العصور دعوة الحق فى هذه الارض وستظل تلبيها ان شاء الله الى أبد الآباد •

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

الفهـــــــرس

طبع بمطابع جريدة السفير
شارع الصحافة ــ اسكندرية

● من منشورات دار الدعوة بالاسكندرية :

ـ فى سلسلة «الاخوان المسلمون خمسون عاما من الجهاد»

١ ـ حسن البنـا : مواقف فى الدعوة والتربية
للاستاذ عباس السيسى

٢ ـ من المذبحة الى ساحة الدعوة
للاستاذ عباس السيسى

٣ ـ منبر الجمعـة : الامام الشهيد حسن البنـا
جمع احاديثه وقدم له «الاستاذ محمد خيال»

ـ فى سلسلة « مختـار الدعـوة »

٤ ـ « عقيدة اليـوم الاخر »
المحرك الدائم للانسان الم
للاستاذ عبد الودود يوسـ

دار الدعـوة
١ شارع منشا ـ محرم بك الاسكندرية